

أغاني الحياة أغاني الوطن

بقلم: أ. بسّام البرقاوي

ترسم على عتبات هذه المداخل أغاني ثلاثة، الأغاني والحياة والوطن، وهي أغاني آخذ بعضها برقاب بعض، لا تعرف التحاي إلا للتلاقي ولا للتداني، ولا سيما عندما يكون الشعر مرفاً تلاقيها ومعبر تدانيها.

فنحن كيفما قلنا ننظر في الشعر ألفينا أغنية في الحياة وللحياة وألفينا أغنية في الوطن وللوطن. فالأغاني نشيداً كانت أم تشبيهاً، أصل من أصول الشعر مبني ومعنى ومعنى حتى في أشد اللحظات التي لم يعزف فيها الشعراء المعاصرون على مولدات الإيقاع التقليدية إيقاعاً قسماً يالك إذا بالتعني عند ألساني الذي كان الغناء منهجاً في الشعر وسراجاً في الحياة (مجزوء الرمل):

أعطني التاي وعتي فالغناء سرّ الوجود

ولو لم يكن الغناء سرّ الحياة وسرّ الوطن الوجود، لما وحدنا الشعوب تنقل تراثها فيما تنقله، وتخلّد حيثها فيما تخلّدها عبر الأغاني، ولا ما وحدنا أيضاً التشيد الرسمي كافياً للتعريف بهوية الوطن عندما يراد لها التعريف وللشاي صوت قوي في التشيد الرسمي التونسي (المتقارب):

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وما كان لهذا الصوت ربّما أن يصدح بالحكمة لو لم يكن الوطن برزح آنذاك تحت نائرة الاستعمار ويرسف في مقامع الأغلال والحديد.

ولا نعي بقولنا هذا أنه لولا الاستعمار لما تفتحت قريحة الشاعر، بل نقصد أن "أغاني الحياة" قد تخلفت من أوجاع الوطن، ذلك أن الوطن زمن السلم أو زمن الحرب يعلم الشعراء العظام ألا ينطلقوا عن الهوى، ألم يقل كل مظهر النواب:

وطني علمني أن أقرأ كل الأشياء

وطني علمني علمني

أن حروف التاريخ مزورة

حين تكون بدون دماء

وطني علمني أن التاريخ البشري

بدون الحب

عويلا ونكاحا في الصحراء

هكذا نشرع في مساءلة الشعر عن بعض خفاياه فنجد أغنية والغناء "حديث القلوب، الحامل أشباح النفس إلى ما وراء المادة" على حدّ عبارة حبران خليل حبران. ومن ثمّ قادنا البحث في الغناء إلى نخوم الحياة وبرزخ الوطن.

ولعلّ ما يعيننا أساسا في هذه المداخلة البحث في تجليات الوطن التي استدعاها الغناء مثلما استدعاها الحياة. وقد رأينا أن الوقوف على نخوم تلك الثلاثية التي رشح بها العنوان، يمكن أن تتوضّع في ثلاثة مستويات، يتصل

الأول بعنابات النصّ ويرتبط الثاني بالإيقاع في ديوان "أغاني الحياة" ويدور الثالث على الحكمة في أشعار الشّابي.

1/ في عنابات النصّ: (ويسألونك عن العنوان قل فيه عن الوطن كلام كثير)

لقد أصبح من الشائع في الدراسات التّقديّة المعاصرة أنّ العنوان في النصّ الشعري الحديث ليس "مجرد خادم للنصّ تابع له" فهو من النصّ بمنزلة الرّوح من الجسد، ومن ثمّ تكون مساءلة العنوان أحياناً أشدّ عننا من مساءلة النصّ ذاته، وحسبنا في هذا المقام أن نلامس عناوين "أغاني الحياة" ملامسة أوّليّة.

إنّ ديوان الشّابي مفعّم بالعناوين الدّالة على الأغاني والنشيد، فالشّاعر قد كتب "أنشودة الرّعد" و"أغنية الأحرار" و"أغنية الشّاعر" و"إلى عازف أعمى" و"نشيد الأسمى" و"أغاني التائه" و"من أغاني الرّعاة" و"الحان السّكرى" و"نشيد الجبّار" و"أنشودة الحبّ".

ولعلّه بكفينا هنا تبياناً للعلاقة بين الأغاني والوطن أن نتوقف عند عنوان قصيدته "من أغاني الرّعاة".

لقد جاء في التعريف بدواعي القول ما نصّه (حلّ الشّاعر صيفاً بعين دراهم من السّماط الغربيّ التونسيّ مستشفياً، وهناك فوق الطّبيعة العذراء السّاحرة والغابات الملتفة الهائلة، والجبال الشّمّ المحلّلة بالسّنديان، قضى عهداً

شعرياً وداعاً، خالصاً للشعر والسحر والأحلام وفي القصيدة التالية صورة

صغيرة من صور الحياة بين تلك الجبال (مجزوء الرمل)

أقبل الصبح جيلاً يملأ الأفق بهاء

فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه

قد أفاق العالم الحيّ وغنى للحياة

فأفريقي يا خراي وهلمّي يا شياه

وأتبعني يا شياهي، بين أسراب الطيور

وأملأي الوادي ثغاء ومراحاً وحيور

واسمعي همس السواقي، وانشقي عطر الزهور

إذا تأملنا العنوان والنصّ المصاحبه له من جهة وتلفّظنا في النظر إلى مشاهد

النصّ من جهة ثانية أدركنا تعالفاً بين الأغاني والحياة وتعانقا بين التشيد

والوطن. فالأغاني كما بيّنا من الشعر ومشهد الرّعاة عنصر أساسي في

مشاهد الطبيعة العذراء في الشمال الغربي، وقد حوّلتها الشّابي بفعل الشعر إلى

قصيدة خالدة قد لا نعدل بها أغنية إذا ما وطئت القدم أرضاً شبيهة بالأرض

التي نزل بها الشّابي يوماً، وربوع سليانة التي تطلوها أقدام ضيوفنا الكرام

شبيهة بتلك الأرض الطّيبة.

وقد تأخذنا نشوة القراءة إلى عوالم سحرية وتطوّح بنا في واد ذي زرع

فننسى حين أو نتناسى للحظات ما جاء في السطر الثالث من المقطع

السّالف الذّكر وهو السطر السّابع في القصيدة "قد أفاق العالم الحيّ وغنى

للحياة" فهذا السطر يذكر بالعنوان الرئيسي لديوان الشابي مثلما يذكر بأن
أجمل الأغاني ما تغنت بالطبيعة في الحياة، وللشابي مع العنوان المشبع بالحياة
أكثر من حكاية.

فهو قد نظم أربع تغنى من خلال عناوينها بالحياة وهي: "جمال الحياة"
و"نظرة في الحياة" و"إرادة الحياة" و"الحياة".

وهذه العناوين على ما بينها من اختلاف قد تتفق بصورة أو بأخرى على ما
ذكره الشابي في قصيدته "إرادة الحياة" عندما كتب يقول:

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبحر في جوحها واندر

و لم يكن احتفاء الشابي بالعناوين الدالة على الحياة بأقل من احتفائه بالعناوين
الدالة على الوطن تصريحاً وتلميحاً، فهو قد كتب "تونس الجميلة" و"تونس
النادية" و"إلى الشعب" و"سر التهوض" و"إلى الطاغية" و"يا حماة الدين"
و"النبي المجهول" و"طغاة العالم".

هذه على الإجمال قراءة سريعة في عتبات الثلاثية وقد مكنتنا من الوقوف
على أوجه من التداخل بين الشعر والواقع من جهة وعلى مظاهر من
التكامل بين الغناء والوطن والحياة ولعل خير ما يلخص علاقة العناوين
ببعضها البعض قول الشابي (الخفيف):

إن هذي الحياة قيثارة الله وأهل الحياة مثل اللحنون

نغم يستمي المشاعر كالسحر وصوت يخل بالتلحين

والليالي مغاور تلحد اللحن وتقضي على الصدى المسكين

2/ الإيقاع: نشيد الشعر/نشيد الحياة/أهازيج الوطن:

إذا تركنا عتبات النصّ إلى النظر في بعض الأساليب الشعرية التي حسّدت ترابط الثلاثيّة المؤسسة للعنوان أمكننا في هذا المقام أن نقتصر على الإيقاع إذ السياق لا يسمح باستنفار كلّ الأساليب.

إنّ الشّابي في ما نرى قد أملى على إيقاع نصوصه ما شاء أن يملي من أغان ثمّ رحل وترك في سمع الزّمان دويّا. فهو إذ ناد الشعر جعله أنشودة الأناشيد وأغنية الأغاني، بل جعله يرقص على قدميه (مجزوء الكامل):

يا شعر أنت نشيد أمواج الخضم السّاحره

التّناصعات، الباسمات، الرّاقصات، الطّاهره

السّافرات، الصّادحات مع الحياة إلى الأبد

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كعرائس الأمل الضّحوك بمسّ ما طال الأمد

إذا استرقنا السّمع إلى الرّسم بالكلمات في هذا المقطع والأذن تعشق قبل العين أحياناً، رثّلنا مع الشّابي صلوات في هيكل الشعر وهزّجنا بتقطيع الكلمات مثلما تنهزّج الصّحور بتقطيع الأمواج التي تحدّث عنها الشّابي.

وإذا قذفت بنا أمواج الشعر والبحر إلى الحياة عموماً وإلى الطّبيعة خصوصاً ألفينا صاحب "أغاني الحياة" قد أنزل موسيقى الحياة مدراراً. فنحن نستمع في شعره إلى المطر يتساقط زخّات ونحن نعجب بربحه التي تنزل على الأذان برداً وسلاماً ونحن نتشّهي برعده ولا نضع أصابعنا في آذاننا حذر الموت.

لأنَّ الشاعر استطاع أن يكون "غريد الأرائين" سواء غنى غناء الطائر المأسور أو عزف على الأوتار التي تصبى الخليم وتبكي العين أحياناً.

ولكن هل من معنى لإيقاع الشعر وإيقاع الحياة أن لم يكن الوطن هو المؤسس لبحور الشعر بعلمها وزخافاتها بأفراحها وآلامها؟ أن البحث عن إجابة لهذا التسائل يفضي بنا إلى توزيع إيقاع الوطن إيقاعين، إيقاع الفناء وإيقاع البقاء، أما النوع الأول فيلخصه قول الشابي:

يا شعر يا وحي الوجود الحي! يا لغة الملايك

غرد فأيامي أنا تبكي على إيقاع نايك

ولعلَّ الشابي لم تترك أيامه كما بكت على الاستعمار الذي أهلك الزرع وحسبنا في هذا المقام أن نكفي بعض ما جاء في قصيدته "غرفة من بَم التي حوَّلتها إلى "غرفة من دَم" فيها صوِّر في أبيات باكية موجعة وفي صوت مزروف بشاعة الموت تصويراً أسطورياً (البسيط):

فالذهر منتعل بالتار، ملتحف، بالهول، والويل، والآيام تشتعل والأرض

دامية بالإثم طامية ومارد الشر في أرجائها غمل

والموت كالمارد الجبار منتصب في الأرض يحطف من قد خاناه الأجل

بسمعنا هذا النص حين يَصوِّر لنا ساحة الوعي أصوات راقصة من حرقة الفجيعة شدة الفرحة إنها رقصة الطير المذبوح من الألم أو رقصة العصفور بلله القطر. فمع كل ترنمة موسيقية تحدث كارثة إنسانية ومع كل تفعيلة يزداد مارداً انتشاء يقطف الرؤوس التي أينعت ولوم تبع.

إنّ هذا المقطع فيما نعتقد قد جعل صوت الفناء صونا أسطوريًا خالداً. وليس هذا المقطع أفضل ما يمكن أن تستدعيه الذاكرة عندما ترى ما فعل اليهود بأهالي غزة وما فعله البيت الأبيض بالفسفور الأبيض في تلك المحرقة؟ أمّا النوع الثاني إيقاع البقاء فشائع ذائع في ديوان الشاعر لا تحطئه الأذن ولا تملحه الأسماع إن رتل عليها مرّات (مشطور المتدارك):

اسكني يا جراح	واسكني يا شجون
مات عهد التوايح	وزمان الجنون
وأطل الصّباح	من وراء القرون

لذلك لا تروانا حاجة إلى المزيد من التماذج بقدر ما تروانا في حاجة إلى القول إنّ إيقاع الحياة غالب على إيقاع الموت لذلك فعنوان "أغاني الحياة" قد عبّر تعبيرا عما جاء في نهاية الديوان وأعطاه لذلك لأن نستطيع لما عنوان الشابي تبديلاً.

3/الحكمة: محنة الوطن حكمة الشعر:

يعتبر غرض الوطنيّات من الأغراض التي تكثرت فيها أصوات وتشدّت فيها أصداء الحماسة، وذاك أمر طبيعي إذا وصلناه بالظروف التي فيها نشأ أو بالغايات التي إليها جرى. لا عجب عندئذ أن وجدنا أكثر قصائد الشعر الوطني قد ألهمت الأحاسيس وهيجت المشاعر ثمّ سرعان ما ترمّدت. غير أنّ أغلب الخصائص التي يوصف بها أكثر الشعر الوطني لا يمكن أن تكون متفذا لقراءة ديوان "أغاني الحياة"، ذلك أنّ الشابي وإن كان موعلا في الإنصات إلى

هموم الوطن مسرفاً في الانشغال اللحظة التي عاشها، لم يبق حبيس الزمن الذي يكاه وأبكاه ولا أسير البيئة التي أسعدته حيناً وأبكته أحياناً، فالشابي قد علم "أن أجود الشعر ما سار بين الناس" لذلك اتخذ الحكمة مبيلاً ليسير شعره عبر الزمان ولتتغنى به الركبان، ففي زمن الحرب قال الشاعر الفيلسوف (البسيط):

فما الحروب سوى وحشية نهضت في أنفاس الناس فانقادت لها الدّول
وقد لا ترانا في حاجة إلى التأكيد على صيغة الجمع التي جعلت الحرب
حروباً والتفكك أنفاساً والدّولة دولا بقدر ما ترانا في حاجة إلى التأكيد على
أن صورة الحرب وما ارتبط بها من شعر حول المستعمر والمستعمر قد
تعمّلت على بشاعتها بحكم عديدة لا يسمع القام باستقصائها، وإذا تجاوزنا
الحكمة المصوّرة لأوضاع الوطن إلى الحكمة التي ارتبطت بالحنين إليه أمكننا
ولأسباب منهجية أيضاً أن نقتصر على شاهدين اثنين:

يقول الشابي (الخفيف):

أنا يا تونس الجميلة في لجـ الهوى قد سبحت أيّ سباحه
شرعتي حبك العميق وإني قد تذوّقت مرّة وقراحه
لست أنصاع للتواحي ولو متـ ست وقامت على شبابي المناحه
لا أبالي وإن أريق دماي فدماء العشاق دوما مباحه

في المقطع لوعة وأسى وحنين وحكمة: لوعة من أشقاء الاستعمار وأضناه
وأسى من شفه الوجد وأعياءه، وحنين من برّح به العشق وأفناه وحكمة من

كذلك ناصية اللغة فاستقطر عجبها وغريبها. وقد لا يخفى ما في هذا القول أيضا من استنفار لذاكرة قديمة مثقلة بتاريخ العشق الذي تهدر فيه الدماء على حجة الشوق والاستعذاب واستنفارا لذاكرة حديثة تنهزج بما قاله:

يا تونس الخضراء جنتك عاشقا وعلى جبني وردة وكساب
إني الدمشقي الذي احترف الهوى فاحضوضرت لغنائه الأعشاب

وليس لنا في النهاية إلا أن نردّد بعض الأبيات التي جعلت ذكرى الشابي باقيا (المتقارب):

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر

إنّ هذه الأبيات التي لوّثت في الألسن ونحتّت في القلوب ورزقت صاحبها من سيرورة الشعر ما لم يبرز غير من الشعراء الوطنيين، إنّما تؤكد أن الوطن معلم الشعر الأول ومنهم جواهر الكلام التي تبقى بعد ان ينتهي كل كلام. وتؤكد خاصة ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: "وإنّ من الشعر لحكمة".

الحاتمة: باسم النشيد الرسمي التونسي بدأنا، وباسمه أيضا ختمنا لأنه نشيد سافر في كل الدنيا، وإذا كان لا بد من حطّ عصي الترحال قلنا: إنّ قصائد الوطن في ديوان الشابي كانت كلاما رائعا معجبا ونادرا مستغربا كلّما ازدادنا منه ارتواء ازدادنا عطشا، لأنّه عزف عن المتسبّب الشائع في الأشعار مبني ومعنى وحكمة فكان "العمدة في محاسن الشعر الوطني وآدابه".

سيدي حمادة:

القرية الأصيلة

بقلم: عبد القادر الهاني

التأسيس:

في بداية القرن الحادي عشر هجري (القرن السابع عشر للميلاد) شرع الولي العابد الرباني سيدي حمادة بن محمد بن عبد الواحد بن عبد الصمد بن عبد الودود في تأسيس القرية التي تحمل اسمه بالشروع في بناء مقر سكناه في المكان الذي

يحاذي مقر الزاوية والمسجد الحاليين ثم تواصل البناء وانتشر العمران تبعاً لحاجة أولاده وأولادهم كلما حان وقت تأهلهم للزواج وتكوين أسر جديدة.

الموقع:

تقع قرية سيدي حمادة عند سفح جبل السرج من جهة الشمال في بقعة



منبسطة مستطيلة الشكل تمتد طويلاً نحو كيلومتر واحد وعرضاً نحو مائتي متراً. يحاذيها من الشرق والغرب واديان صغيران هما الوادي الكبير من

الغرب والوادي الصغير من جهة الشرق. ويُنتصب على الحافة الغربية للوادي الكبير هضبة تسمى الكرومة المحرشة في حين تنتصب على الحافة الشرقية للوادي الصغير هضبة تسمى الكرومة الرطبة.

يظهر أنه خلال القرنين الأولين من التأسيس، ومع قرابة أجيال ثمانية، اكتمل للقرية مقوماتها الأساسية من حيث العمران ومن حيث استتباب مقومات النشاط العام لأهل القرية، والذي به يتسنى أن تتواصل الحياة فيها وتنمو.

العمران:



في تلك الفترة انتشر العمران وتلامست الدور حول الزاوية والمسجد من كل الجهات، وبخاصة من جهتي الشمال والجنوب تبعاً لطبيعة الموقع جغرافياً.

الملامح العامة للمعمار في القرية:

مسكن العائلة في القرية يسمى "الحوش" ويتكوّن دائماً من "دار" أي غرفة قبلية المفتوح مبنية من الحجارة بلاطها من خليط التربة وسقفها من أعواد الصنوبر فوقها أغصان أو حجارة من "الترش" وفوق ذلك خليط من

التربة البيضاء. عن معنى "الدار" نواة وعن شامها نواة وهما من الحجر الصيّاخ (بدون ملاط) علو حيطاتها حوالي متر الواحد تسند على الحائط أعواد سمّاش (عود حشن) وتغطى الأعواد بالأغصان وفوقها نبتة الديبي أو عجنة من التربة لمنع تسرب مياه المطر والنواة مخصصة للطبخ وحفظ أدوات العمل الفلاحي وأخيرا يقام "البرطال" وهو حائط من الحجر الصيّاخ



ارتفاعه حوالي متر واحد وقبائه من الداخل ركائز خشبية ارتفاعها متران انتصبت عليها أعواد من الخشب أفقية تسند عليها وعلى الحائط أعواد من الخشب فوقها أغصان من شجر الذرو والدفلة والديس لمنع يسرب مياه الأمطار. والبرطال أساسا مأوى الماشية (من بقر وماعز) والدواب (بغل أو بغلة وحمار أو أتان) أما امتلاك الأفراس فأمر نادر.

تتواصل هذه الوضعية للحوش بمكوناته التي ذكرنا بعض الوقت ثم تبدأ

في التحول تباعاً مع كثر سن الأولاد وحلول مواعيد تأجيلهم للزواج فتقام مكان النواله أو النوالتين والبرطال دياراً (غرف نوم) وسقيفة. هكذا تكاثر العمران وتلاشت مكوناته فظهرت الممرات والحوام والساحات.

• الممرات: ممر الرحيمية، ممر الخلايفية، ممر سيدي عبد الله، ممر البخاخية.

• الحوام: حومة العمامرة، حومة الخلايفية، حومة الرحيمية، الحومة القوقانية، حومة الجامع.

• الساحات: ساحة لمصال، ساحة العين، ساحة الجامع.

المنشآت الحيوية للقريّة:

تمثلت في ما يلي:

- إقامة مقام الولي وحيد الدين مع اثنين من أبنائه وهما: العموروسي وحميدة.

- بناء المسجد للصلاة.

- بناء غرفتين اثنتين لتخفيظ القرآن الكريم.

- بناء غرفة أخرى لإقامة الضيوف.

- نشأة الحوانيت ولها وظيفتان اثنتان:

*التجارة في القماش ومواد تموين.

*منتدى للرجال في أوقات الراحة.

وقد تطورت الحوانيت عددياً حيث كانت في منتصف القرن العشرين

لا تقل عن أربعة دكاكين تعمل في وقت واحد.

التزود بالماء:

في البداية نقطة ماء يتزود منها أهل القرية بالماء وتسمى عين الجدد وبعد فترة لم بعد ماؤها كافيا فتم بناء بئر على عين غنية وتقع جنوب غرب القرية على بعد نحو الكيلومترين ثم وفي وقت لاحق تم حيازة واستغلال ماء عين ثانية وهي "عين الكاف الأخضر" جنوب القرية على بعد كيلومترين ونصف الكيلومتر.

- المقبرة:

ظهرت المقبرة - وتقع شرق القرية - بعد فترة طويلة نسبيا نظرا إلى العادة التي كانت متبعة في هذا الشأن، دفن الأموات بمدينة القيروان.

- التوسع العمراني:

مرّ التوسع العمراني في قرية سيدي حمادة بمراحل:

المرحلة الأولى: وتمثل في انتقال أعداد من العائلات بالسكن في أماكن غير بعيدة عن القرية الأم. وهكذا ظهرت قرية القنارة وتجمع "الجليلية" وعديد الدور في وادي السنوسي و"عين الجدد" وفي باؤ. <http://Archivebeta.Sakhril.com>

قرية القنارة:

هي ثلاثة تجمعات سكنية: قنارة الرغادية، وقنارة الشتاوية، وقنارة البلاهنية، قرية من بعضها يفصل بينها الوادي الكبير والوادي الصغير اللذان يكونان بعد تلاقيهما وادي الخروب.

المرحلة الثانية:

تمثلت في نزوح عديد العائلات وعشرات من الشبان إلى تونس العاصمة طلبا للشغل خاصة، وقد ظلت علاقتهم بالقرية الأم وطيدة جدا، إذ ما لبثوا أن أقاموا بها عديد الدور في بداية ستينيات القرن العشرون فنشأت أحياء جديدة شمالي القرية: (حي المدرسة، حي المساكن الريفية

وأخيراً حي الغزلان).

الدار: المدلول:

تطلق كلمة "دار" في قرية سيدي حمادة ويراد بها البيت المعد للنوم ليلاً ولزائلة أنشطة تجارية كتحضير مستلزمات طهي الطعام وغير ذلك.

من ذلك رحي الحبوب وغرلة الدقيق وخلطه وعجنه وتخميره وترويب الحليب وتحضير الصوف ونسج المنسج وتناول الطعام...

وتطلق كلمة "دار" كذلك على مجمع المنزل ويشمل البيت الذي تحدثنا عنه آنفاً وما حوله من "نواله" و"برطال" أو ما قد أنضاف إليها من بيوت أخرى وسقيفة عوضت النواله والبرطال، ويطلق على هذا أيضاً لفظ "حوش" ولهذا يقال: فلان عنده "حوش" كبير أو فلان عنده "دار" كبيرة.

الدار: الشكل والمحتوى:

الشكل دائماً مستطيل والمقاس عادة 10 أمتار على 2.5 متر قبلية المفتوح مبنية بالحجارة وعجنة التربة، مطلية من الداخل بعجنة التربة البيضاء، مخلوطة بدقيق التبن أو النخالة، ارتفاعها بين المترين ونصف المتر وثلاثة أمتار.

في أحد ركنيها: دكانة (من فترة غير بعيدة عوضت الدكانة بالسدة وهي من اللوح) مقامة من الحجارة ارتفاعها من 50 إلى 80 صنم ملبسة بالطين، عليها حصير من الخلفاء وفي أحد طرفيها من جهة الخائط صندوق خشبي به حلي المرأة وأتواها الخاصة بالأفراح، وإلى جانب الصندوق فراش العائلة ويتكون عادة من كليم وعبانة أو اثنتين. وفي هذه الناحية بالذات يتدلى من السقف مهمل العبانة الحديدية مغطاة بقطعة قماش ولا تستعمل إلا

عند قدوم ضيف.

في الركن المقابل من الدار أدوات حفظ المؤونة وماعون المطبخ والأكل: الروني، والعذيلة، والشكارة، والحواي، والرحى، والرقعة، والبرمة، والكسكاس، وبرمة الحليب، وحلاب بوزنونة، وسطل نحاس، وقصعة العود، والمهراس، والسداية، والقلبة...

وعلى الحائط قبالة الداخل علقت: "المزاود"⁽¹⁾ والحليبات⁽²⁾ والشقايل⁽³⁾ والتباسي⁽⁴⁾ بتنسيق بين هذه الأدوات واحدة فأخرى.

في حذّي الباب من الداخل يعلّق تاج من جهة توضع عليه فتيلة الزيت للإضاءة ليلاً. وفي الجهة الأخرى فتحة صغيرة داخل الحائط وتسمى طاقة فيها توضع أدوات صغيرة كثيرة الاستعمال: إبرة، محيط، كبة كنان، كبة سباولي، وقيدة، شعبة. وفي فترة لاحقة اختفت فتيلة الزيت وحل محلها ما يسمّى "القاز أو القنّار".

في وسط الدار (الغرفة هذه) حصير من الحلقة أقلّ جدّة من التي فوق الدكانة وعليها يكون الجلوس تمّاراً، وتناول طعام الغداء وطعام العشاء والسهر ليلاً.

وإذا كان للعائلة رضيع فإنك ترى "الدوح" يتدلى من السقف ويستعان على إسكانه وكفّ بكائه وجلب النوم له.

في الوسط ينتصب المنسج على مدار السنة تقريباً. وأخيراً في العتبة السفلى توجد حفرة صغيرة بها توضع الفّراحة (أداة كنس وتنظيف) التي تتخذ من أغصان شجرة الذّرو، أو شجرة الصنوبر، أو من شجرة "المشان" وهي أفضلها في هذه المهمة.

الغسل: -غسيل الثياب بالماء والصابون.

-غسل الأواني بالرماد والرمل.

-غسل الصوف بالماء الساخن.

التزود بماء الشرب:

نحدثنا عن الموضوع بالنسبة للقرية الأمّ أما بالنسبة لقرية الفناوة ففي البدء كان التزوّد بماء الشرب والسقي يتمّ من عين جارية وتسمّى: "عينات الكحل" تقع على بعد كيلو مترين جنوبي القرية.

وفي بداية القرن العشرين تمّ حفر بئر تتوسط التجمعات السكنية الثلاث على ضفة وادي الحروب⁽¹⁾.

أمّا في تجمع الجلايلية فإنّ التزوّد بماء الشرب كان وما يزال يتمّ عبر تدفق مياه وادي السنوسي، حيث لا يقطر بين القنّع والساقية القادمة من رأس الوادي أكثر من مائتي متر.

الهوامش:

(1) ج: مزود: آنية من حلد الماعز: تنف شعرة وديغ بالدباغ: قشرة شجرة الصنوبر وبه تحفظ العولة من كسكي ومحصّة....

(2) ج: حليّة: آنية من فخار مطلية بطلاء يمنع من تسرب الزيت الذي يوضع لها.

(3) ج: شقالة: آنية من فخار مطلية مزينة بتناول فيها الطعام من كسكي ومحصّة.

(4) ج: تيسي: آنية صغيرة من فخار مطلية يوضع فيها الزيت والشكشوكة عند الأكل.

(5) ما يزال الناس يترامون على المدعو... بن اغاي الذي قد ألقى التحضير لأداء فريضة الحج في تلك السنة، وقبل الشروع فيها لبضعة أيام توجه في الصباح إلى أخيه قاتلا: لقد رأيت البارحة في المنام أن الأحرة ترقص في مريضها المعتاد، وهي عطاش، لذا قررت العدول عن الحج وصرف المبلغ الذي كنت سأحج به في حفر بئر، ثم شرع في الحفر، فأقبل الشاكسون على المشروع فتم الحفر والبناء في وقت قريب.

حاملُ المصباح

بقلم: جلال المخ

«ستجد نفسك في كفٍّ مهجور

قد غمره الدِّيَّجور

ستسير خلفك الأشباح

المومياء تلو المومياء

موكب خاشع في الظلّمة

ستكون وحدك حامل المصباح

وستمشي وسط الأشباح

لتشيع جثثك الزمان الهارب

في جلباب من الصّمت

ستعرف طعم الغربة

وتذرف الدّموع فرحاً

فدموع الغربة

سفائن تركبها إلى مدائن العصفير»

(البحث عن النهار)

ولد عثمان الخلاصي الشريف يوم 25 فيفري 1953 بمنطقة مرناق ونشأ بمدينة حمام الأنف وأحرز على شهادة ختم الدروس الثانوية الترشيفية وعلى دبلوم مهرب مختص وشهادة الاختبارات على الأطفال من المركز العربي الإفريقي لتكوين الإطارات العليا في التربية الخاصة.

وبعد أن عمل في سلك التعليم و في مجال التربية الخاصة سافر سنة 1984 إلى فرنسا و بالضبط إلى مدينة «ران» Rennes بمقاطعة «البروناني» La Bretagne حيث تحصل على دبلوم إدارة المعاهد الطبية التربوية ومؤسسات رعاية الطفولة من المدرسة الوطنية للصحة العمومية بفرنسا. كما تحمل عدة مسؤوليات داخل الهيئة المدبرة لاتحاد الكتاب التونسيين وكان وراء بعث فرع الاتحاد الجهوي بين عروس اللوجود. واضطلع كذلك بمهمة مستشار بلدي برادس التي يقطنها منذ زواجه.

كل هذه المسؤوليات لم تمنعه من الاهتمام بالأدب والثقافة فقد ولع بمطالعة أعمال الروائيين والشعراء العالميين منذ صغره و التي كانت تمثل بالنسبة إليه أهم ما في تاريخ البشر من إنجازات. وكان له ميل خاص إلى أعمال الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر من أمثال «قي دي موباسان» Guy De MAUPPASSAN و«فلوير» FLAUBERT و«بودلير»

BAUDELAIRE وإلى كبار الروائيين الروس مثل

«دوستوفسكي» DOSTOÏEVSK و«غوركي» GORKI .

ثمّ قادته مطالعته بعد ذلك إلى الأدب الإفريقي والأدب الآسيوية إلى جانب ثقافته العربيّة وتكوينه العلمي التربوي ودراسه لكثير من المؤلفات السياسيّة و التاريخيّة.

كلّ هذا جعله يدخل عالم الكتابة طبيعياً و يخوض غمارها لا عن تطفل و لا تعسف وإنما عن حسّ أدبي متطورّ وإلمام وشغف.

وقد كتب المقالات والقصائد ونشرها في كامل الصحف والمجالات التونسيّة تقريباً مثل «الصباح» و«الصدى»، «الشروق»، «بلادي»، «الحرية»، «Dialogue»، «Le Temps»، «الأخبار»، «المسار»، «الحياة الثقافيّة»، «الإتحاف»، «قصص» وغيرها. كما أعدّ عدداً خاصّاً بالأدب التونسيّ نشرت بمجلة «شؤون أدبية» مجلة اتحاد كتّاب الإمارات العربيّة المتّحدة.

أمّا تأليفه المنشورة في شكل كتب طبعت أو في طريقها إلى النشر فتفوق العشرين مؤلّف صدر منها إلى حدّ اليوم:

1، عالم الرّؤية عالم الطفولة، مقولات في الشعر التونسي الحديث (نشر المؤلف)

2، الغزاة و قصص أخرى (تعريب) (نشر المؤلف)

3، مورييس كارام شاعر الحبّ والسّلام (إعداد وترجمة)
بترخيص من مؤسسة مورييس كارام البلجيكية، عن دار
الإتحاف للنشر.

4، القلعة مجموعة قصصية (تعريب) عن دار الإتحاف للنشر.

5، مفاهيم ومصطلحات الثرية المختصة (بالاشتراك) كتاب
مهني مختص.

6، شيء من الحياة، مختارات من الشعر العالمي (تعريب) عن
دار الإتحاف للنشر.

أما الكتب التي تنتظر الطبع بعد أن نشر معظمها على أعمدة
الصحف و المجلات فهي:

1، مختارات من الأدب الصيني <http://Archivebe>

2، جزاء سنّمار مجموعة قصص للدكتور منصور مهني
(تعريب)

3، جزيرة الماعز، مسرحية مترجمة.

4، مجموعة من قصص الأطفال.

5، قطك ينصت إليك، نصّ شعري لجاك لينو هالد (تعريب)

6، حوارات: قام بها المؤلف أو عمد إلى تعريبها.

7، ما وراء النظر: نصّ شعري للشاعرة اللبنانية نادية تويني

(تعريب)

- 8، غزل: نص اليشار تافوي من الشعر الأفغاني القديم (تعريب)
- 9، أغنية الماء: (مجموعة قصائد مترجمة لجاك بريغير)
- 10، للأفق جهة واحدة نصّ كلود دار بولاي (تعريب)
- 11، السّحن الفردي رواية الطاهر بن جلّون (تعريب)
- 12، كلمة السرّ: مجموعة شعرية لجون موميرينو (تعريب)
- 13، مختارات من حكايات موريس كارام وقصصه (إعداد وترجمة)

14، رياح: مجموعة شعرية

15، قصائد إليها مجموعة شعرية.

وإذا ما طرحنا الكتاب المهني المختص جاثبا و هو يدلّ على كلّ حال أنّ الكاتب يمكنه أن يكتب التّأليف ويسعى إلى الإضافة مستفيدا من اختصاصه المهني ساعيا إلى الإفادة بدوره، فإنّ هذه التّأليف التي أمتدت على ثلاثة عقود من العمل الدؤوب والتساؤل والبحث المتواصلين، تصنّف في ثلاثة أقسام تتمحور حول أنماطها الكتابية وهي الترجمة أي أساسا التعريب والمقاربة النقدية والإبداع الشعري.

وقد أدرك أهمية الترجمة قصد إثراء المكتبة التونسية والعربية بإبداعات الآخر وتقديم تجارب إبداعية مختلفة تفكيرا وحضارة للقارئ العربي. وتتم هذه الترجمة بأجناس كتابية مختلفة وتشمل

الشعر و القصة والرواية والمسرحية وكذلك الحكاية والملحمة وحتى الحوارات الصحفية ذات الطابع الفكري والاهتمام الإبداعي بصفة عامة. وقد نشر إلى حدّ اليوم من كلّ ذلك مجموعتين قصصيتين هما «الغزاة» و«القلعة» ومجموعتين شعريتين هما «شيء من الحياة» وأشعار «موريس كارام». والمتأمل في هذه القصص يرى أنّها ليست لمؤلف واحد بل لمجموعة كبيرة من الكتاب والقصاصين من عديد الأقطار بل من كلّ القارات. وهذا الاختيار وإن كان يمثل فرصة للقارئ للتحوّل في الآداب العالمية والاطّلاع على تنوع كتابيّ كبير فإنّه قد يخشى عليه هذا التنقل المفاجئ من كاتب فرنسي إلى قصة صينيّة إلى تجربة مكسيكية أو سبيلغالية ويتشتت تركيزه فلا يقرأها بطريقة متسلسلة تسلك خطّ تركيز متصاعد بل يطالعها بطريقة متقطّعة متفكّكة. إلّا أنّه مع شيء من الثبّت يمكن أن نجد لها أكثر: من خيط رابط خفيّ فهي تنتمي كلّها إلى الأدب الحديث وإن تعدّدت أطرها المكانية فقد قرّب بينها الزّمن كما أنّ مواضيعها تدور حول مثلث الحبّ والحرية والعدل بما كلّ ما يدور حول ذلك من ثورة على الظلم والتوق إلى التحرّر من رموزه والسّعي إلى حياة ينتصر فيها المساواة والكرامة ثم إنّ عملية اختيار النصوص للترجمة ذاتها ليست اعتباطية بل لابدّ أنّها تخضع لمقاييس معيّنة في ذهن

المرحوم ولا شك أنه يقرأ أضعاف ما يعرب وفقاً لوضعه لنفسه مسبقاً من مقاصد يسعى إلى تحقيقها من خلال تلك العملية.

وما يقال في المجموعتين القصصيتين يصح كذلك في المجموعتين الشعريتين مع بعض الاختلاف، فإن تضمّنت الأولى قصائد ما يقارب ثلاثين شاعراً من مختلف أصقاع الدنيا فقد ضمت الثانية قصائد لشاعر واحد أي البلحيكى موريى كارام وهو من أكبر شعراء أوروبا وضع ما يقارب الثلاثين مؤلفاً هتم بالشعر والقصة والحكاية و تتميز كتاباته بالبساطة والعمق وتصوير عوالم الطفولة والبراءة. وتختلف ظاهرياً مواضيع قصائد هاتين المجموعتين اختلاف مؤلفيهما فتحدثت عن الشعر والحلم والموسيقى والفن والحرب والثورة لكنهما تصدبتا كلها في ذلك المثلث الأكبر الذي تتمحور حوله نشاطات عثمان الجلاصى الإبداعية بأنماطها. وتقنية المرحوم في عمله لا تلتصق بالنص الأصلي التصاقاً حرفياً بل تنحى إلى المعنى تحدده ثم تصوغه صياغة عربية لا تشعرك بأن النص منقول عن لغة أخرى دون أن تخرج كلياً عن روح الصياغة وخصائص المبنى الأصليين. واللغة المنقول إليها شعرية بالأساس حتى وإن تعلقت بالقصة تتميز بالبساطة ووضوح تراكيبها ومعانيها شفاقة تتجنب التعقيد و تنبو عن البلاغة القديمة وهي لغة حديثة تتماشى

مع روح العصر وتشعر أن القضايا التي تعالجها هي مواضيع الساعة ومشاكل العصر الراهنة.

إلا أن عددا لا يستهان به من هذه القصائد أو القصص لم تنقل عن لغتها الأم التي كتبت بها في الأصل بل هي نصوص كتبت بالصينية أو الهندية أو الإسبانية وغيرها ونقلها بعضهم إلى الفرنسية وعرّفها المترجم بعد ذلك النقل الأول وهذه الترجمة عن الترجمة قد تجعل المسافة أبعد والبون أوسع بين ما كتب في الأصل وبين ما يصل في نهاية المطاف إلى القارئ العربي بعد تصرفات المترجم الأول واجتهادات المترجم الثاني بينما لا تبسط هذه الإشكالية إزاء النصوص المكتوبة بالفرنسية.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الترجمات فوائدها ودول عديدة تنبه إلى أهمية الترجمة بل وتخصص لها المراكز والسنوات الوطنية. فزيادة على إراثها للمكتبة العربية فهي تؤكد اغتذاء الآداب والفنون ببعضها البعض وتساهم في توسيع دائرة الأدب المقارن وتشهد على تلاقي الحضارات والتحارب الأساسية مهما اختلفت جنسيات أصحابها وتجعل من التفتح الإبداعي مرآة للتفتح الفكري والإنساني الذي يجب أن يكون والذي ينبذ العصبية ولاغلاق والتفوق وهي في النهاية توسع آفاق كاتبي القصّة الناشئين وتحيلهم على تحارب متنوعة ومثيرة.

أما اهتمامات المؤلف النقدية فتحسبها مجموعة الدراسات المتعلقة بالشعر التونسي الحديث «عالم الرؤية - عالم الطفولة مقولات في الشعر التونسي الحديث»: ويتعلق الأمر هنا بمجموعة من القراءات قام بها المؤلف لعدد من المجموعات الشعرية التونسية الصادرة في التسعينات من القرن الماضي مثل مجموعتي «صباة مختصرة» و «صغير الوقت» لعبد العزيز اخاجي أو «براعم الشوق» لعبد الستار العبروقي. ولم يسلط منها نقديا واحدا على كل هذه القراءات بل نرى طريقته في تناول هذه الآثار تتغير من مجموعة إلى أخرى فتبحث في الرموز وتفككها وتنظر في الأبعاد وتسطرها وفيها كذلك جانب انطباعي حاول المؤلف أن يخطط بمجموعة من آليات النقد التي تستعملها مدارس نقدية مختلفة أو على كل حال هي لا تخلو من نتائج ذات أهمية حاول من خلالها - وهو أحد الشعراء في نهاية الأمر - أن يحتفي بما يصدر في الساحة الثقافية من إصدارات عديدة في حاجة إلى كثير من النقد ليطورها ويدفعها إلى التحسن وذلك في غياب نقد محترف أو جامعي يتصدى لهذه المهمة رغم بعض المحاولات القليلة التي لا تفي بالحاجة. وكأنه يوجه الاتهام لا مباشرة لهذا النقص ويحاول تلافيه بما أتيح له من ثقافة وإطلاع. وهذه القراءات جزء من مقالات أكثر عددا نشرها في تلك الفترة حول أحدث الإصدارات وقد يجمعها كلها في كتاب

يكون شهادة نقدية من شاعر على تحارب شعرية لغيره وهذا جانب من تفتحه الإبداعي على إنجازات غيره من مواطنيه ومعاصريه وحلقة من تفتحه على الآداب الإنسانية عموماً.

إلا أن هذه الذات الشاعرة التي تلامس الشعر من خلال نقد الشعراء التونسيين أو تعريب الشعراء الغربيين تجد مجالها الحقيقي والطبيعي في القصائد التي بدأ يكتبها منذ السبعينات من القرن العشرين.

واستمر في ذلك على مدى يفوق الثلاثة عقود من الزمن وهو في هذا يعتبر مقلداً إذ يكون مجموع القصائد التي كتبها ما يضاهي مجموعتين كلتاهما من مائة صفحة تقريباً واللذان نَحْمِلَانِ عنواني «رياح» و«قصائد إليها» ويعود هذا إلى أنه متأثراً ومتنبئاً فيما يكتب يعود إلى نصوصه وينقحها ويحصرها ويبدلها ويضيف إليها ويحذف منها دليلاً على قلقه الإبداعي المتواصل وعدم رضائه وتشدده إزاء القصيد وسعيه الدءوب إلى التحسين والتجويد وإن قال المثل العاقل «من اتعظ بغيره» فالشاعر وهو عاقل جداً قد اتعظ بنفسه وتجربته لما نشر في نهاية السبعينات مجموعته «ارتظام على جدار الصمت» ورغم ما تنسم به من حماس وألتهاب مشاعر يوجهها حماس الشباب واندفاعه فإنه يبدو أنه لم يعد راضياً عن نضجها الفني ورموزها شديدة الوضوح ومباشرتها العفوية

الصّارخة في بعض الأحيان والدليل على ذلك أنّه لا يثبتها في أحيان كثيرة ضمن قائمة مؤلفاته، بل إنّ اختياره لثلاثة أو أربعة نصوص اعتبرها أجودها وإحافها بمجموعته «رياح» دليل على أنّه أعدمها نهائياً وقلب لها ظهر المحن.

وقصائد عثمان في هاتين المجموعتين اللتين مازلنا ننتظر صدورهما لتأخذنا مكانهما الطبيعي بين مدونة الشعر التونسي الحديث، تنتمي إلى قصيدة النثر وتستمدّ موسيقاها من تركيبة جملها وبساطة ألفاظها وتستمدّ جماليّتها من سلاستها وتدقّق صورها ونصاعتها رغم أنّه في مرحلة أولى لم يتخلّص نهائياً من رواسب الشعر العمودي والشعر الحرّ القائم على التفعيلة الخليلية. وبظهر هذا بطريقتين، أولاً أنّه أحياناً يلتزم بالرويّ ورغم تحلّله من الأوزان العروضية و ثانيتهما بروز جمل شعريّة موزونة خليلياً داخل مقاطع من شعر نثري يتجاهل تلك الأوزان ويتجنّبها كأن يقول مثلاً: «بعمقي ينور ألف نزيّف» فعولن فعولن أو «آيها الطّين تشكّل» فاعلاتن فاعلاتن.

إلا أنّ هذه الملابس تمحى بالخصوص في قصائده الأخيرة لتصبح نصوصه ذات خاصيّة تميّز ببساطة عميقة وتحيل كلماتها الواضحة وصورها الطّبيعية إلى معان عميقة وأبعاد فكريّة كثيرة ولعلّ لترجماته لتلك الملاحم الهندية والصّينيّة ولأشعار موريس كارام

التي تخاطب الطفل في الإنسان بلغة حاملة و صور دافقة بعض التأثير في هذا التحول. وبما أن الشعر مرآة النفس والشخصية، فلعل ذلك يرجع إلى تطورات فكرية و نفسية واجتماعية في ذات الشاعر جعلت نظره إلى الدنيا والأحداث تتغير ومقاربتة للقضايا الجوهرية تبدل. وبعد أن كانت القصائد تلتجئ إلى عديد من الرموز التاريخية المثقلة بالمعاني والمشحونة بالأبعاد تبحث لديها عن تأثير كبير لدى القارئ مثل الحلاج وريحان بن صالح وصلاح الدين الأيوبي وأبي ذر الغفاري أو إلى الرموز الدينية مثل قابيل وهابيل والأديبة مثل «دون كيشوت» التأثيرات التي كانت تستمدّها لتبني حولها القصيد وعمدت إلى كلمات بسيطة ومفردات واضحة تنتمي خصوصاً إلى السجل الطبيعي مثل المطر والرياح والماء والليل والربيع الخ... تستمد من بساطتها الظاهرية عمقا شعريا ورحابة تأملية فيها كثير من الدربة والتجارب والسنين. وأثر ذلك بالتالي على شكل القصيد الذي أصبح يتجنب التطويل الذي بلغ حدّه في نصّ «آبها الطين تشكّل» أي حوالي مائتي سطر ليحتل النصّ في ثلاثة أسطر وفي بعض الأحيان سطرين ولتعوّض هذه الومضات أو اللمحات بإيجاءاتها الشاسعة المطوّلات برموزها وأبعادها الثقيلة وليعبر الشاعر هندسة النصّ ويخرج به رغم تحلّيه عن الأوزان من عمودية تراكب من خلالها الصور الشعرية فوق بعضها تحترق الفضاء إلى أفقية

منفتحة تعتمد التأثير الشعري بإشارات خاطفة تعانق الفضاء.
وتغيّرت كذلك الأصوات التي تملأ النصوص لتتحول من الصخب
والجلبة والارتطام إلى انسياب رقيق وخافت.

ومن هذه القصائد الجديدة التي تغيّرت معها حتى العناوين
لتصبح لفظة واحدة كما أصبحت بدورها عناوين المجموعات
نذكر:

كان المطر مدرارا

فوجدت محباً

بين رموشها الدافئة (رموش)

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أو: عانقتها

عانقتني

حتى انصهرنا

مثل حلم (عناق)

أو: (1) عذب هو الموت

الذي يخلص من العذاب

(2) الهروب من الموت

تعجيل بالنهاية (موت)

أو: إذا كانت الحياة سرايا

لماذا نصرّ على البقاء (حياة)

أو: ساعة أنحت

بدت عيناها على صفحة الماء

لذا

شربت،

شربت حتى جفّ الجدول (عطش)

أو: الفراق

سمح لي

برؤية جمال العالم

عبر دموعي (فراق)

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أو: بعض الكلام

نبع شفاف

يغسل أدران الزّمن (كلام)

أنّ عثمان الجلاصي الشّريف شاعر بالأساس فقد بدأ حياته
الكتابية بالشّعر واقتحم عالم النّشر بمجموعة شعرية ومحاولاته
التّقديرية لم تهتمّ إلّا بالشّعر وفي الترجمة عربّ عشرات النصوص
الشّعريّة والقصص ترجمها بلغة شعرية ولعلّه آمن في وقت من
الأوقات أنّه بإمكانه أن يغيّر العالم بالشّعر والشّعر كان في القلم
نبراسا و الأدب منارة يهتدى بهما وقد صوّر نفسه في بعض قصائده
البدايات يحمل مصباحا ليبدّد الدّياجير والظلم، والتّفسير البيهقي

هو أن هذا المصباح يمثل نور المعرفة والإبداع الذي تحتاج إليه الشعوب لتبدد ظلمات الجهل وتزيح غياهب التخلف ولكن بعد مرور عقود من الزمن وبعد أن اغتذى بالتحارب الحياتية بشهدها وغلقمها وبعد أن حلب من الدهر أشطر كما يقول المعري وخبر صروف الدهر كما يقول المتنبي ترى هل مازال يؤمن أنه يحمل مصباحا لتسير وراءه مواكب خاشعة في الظلمة ينير لها الطريق أم أن المصباح لم يعد يضيء سوى طريق الشاعر نفسه ليحقق ذاته إبداعيا واجتماعيا وعائليا في مسالك الحياة الوعرة ومتقلبات العصر الشائكة وفي هذا الزمن الذي لا يرحم؟.

رسالة وريث عتيقا من الشاعر المختار المومني ما يلي نصها:
 "تحية إكبار وتقدير لأسرة الإتحاف وهي تحفل بالتوبيل الفضي للمحة 25 سنة مرت وهو عجز قل أن وصلت إليه مجلة أدبية والإتحاف رغم إكثابتها المتواضعة واصلت المسيرة بإصرار وثبات بفضل أسرتها وبفضل مساهمات كتابها وشعرانها وإعلاميها في تأليث المشهد الثقافي وإثرانها بتجارب مختلفة، إذ سعت أن تحفل بالكتاب "الكبار" وأن تحضن الأدياء والشعراء الثبيان، كما فتحت نوافذها على تجارب خارج رقعة الوطن وساهمت في تلاقح الثقافات. فكانت دوحة بضيء إلى ظلها كل من ابتلي يعشق الكتابة. والإتحاف تحفل بهذا العرس الثقافي أهتبل الفرصة لاقتراح على أسرتها الموقرة بعض الاقتراحات وهي أن تنقد في كل عدد من أعدادها مساحة لشاعر أو أديب مغفور فتعرف به وتنتشر له شيئا من إنتاجه وان تطرح موضوعا موضوعا للنقاش مثل مستقبل الأدب المكتوب في عصر الأدب الإلكتروني أو أزمة الأديب والمثلي أو المدونات الإلكترونية وعلاقة القارئ بها إلى غير ذلك من المواضيع التي تستجد على الساحة الثقافية وما هذا بعزيز على الإتحاف. وخاتما كل سنة والإتحاف وأسرتها بخير.

فشكرا للشاعر مختار المومني على هذه الرسالة وما ورد فيها من اقتراحات.

موقف الرسالة الإسلامية من الموارد المالية

بقلم : الأستاذ عبد الكريم العطاوي

يجذبنا هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات، إلى بيان الحالة الاقتصادية في العالم، وقدر الاقتصاد الإسلامي على إرساء الإصلاح المنشود، من جميع دول العالم بدون استثناء، ليحقق في أرضنا اليوم الازدهار والسلام والعدل الاجتماعي، وليسود التوفيق والنجاح والتحارب الإيجابي بين صاحب العمل والعامل، والتوازن بين الإنتاج والاستهلاك، نظراً لخصائص الرسالة الإسلامية التي تدعو جميع الناس إلى التعاون والإخلاص والتفاني في العمل، والتحارب بين العامل وصاحب المؤسسة بكل صدق، لنتمو وتزدهر، فتعود عليهما معا بالفائدة والتخارج الباهر.

هذه الخصائص التي امتازت بها الرسالة الإسلامية لا نجدها عند غيرها في النظامين : الرأسمالي والاشتراكي المذكورين، إزاء هذا التباين، يجدر بنا أن نوضح مفهوم وهدف كل نظام على حدة، فنقول أولاً ما هو مفهوم الاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي والإسلامي ؟ وثانياً ما هي خصائص الرسالة الإسلامية ووسائلها في سياسة الموارد المالية ؟ وثالثاً ما هو موقفها في التعامل بها ؟ ورابعاً كيف ينظر إلى الموارد المالية هل هي وسيلة أم غاية في حد ذاتها ؟ وخامساً ما هو موقف الرسالة الإسلامية من الأزمة المالية الحالية ؟

ينبغي علينا - إزاء هذه التساؤلات - أن نبيّن :

أولاً : أ- الاقتصاد الرأسمالي :

فتقول إنه صراع دائم بين رأس المال والطبقة العاملة، لماذا ؟ لأنه بني على

أساس حرية الفرد المطلقة في إدارة الأعمال الفلاحية والتجارية والصناعية والسياحية، وغيرها من الأعمال الحرة الأخرى، مستندا في ذلك على الأسس التالية :

- 1- المصلحة الشخصية كهدف أساسي
- 2- المزاومة كوسيلة، فلا بد له - لكي يقتحم مصاعب العمل من منافس
- 3- الحرية كشرط، لأن فقدانها يقتل المنافسة، ويشلّها ولا يحقق المنفعة الشخصية (1).

هذه الأسس الثلاثة، لازالت تعمل على تضخم الإنتاج وتكدّسه في الأسواق، وانخفاض الأسعار، وإقفال المصانع، وصرف العمّال الذي سيؤدي بالضرورة إلى ثورة عارمة، تآكل الأخضر واليابس، معربة على إفلاس هذه النظرية الاقتصادية.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ب- الاقتصاد الاشتراكي :

أما أنصار المذهب الاقتصادي الاشتراكي، يعتقدون : "أن مبدأ المصلحة الشخصية في الاقتصاد، لا يمكن إلا أن يؤول إلى تكديس الثروة بيد الأقلية" (2) لهذا نادوا بإجلال الاقتصاد الاشتراكي محل الاقتصاد الرأسمالي، لماذا ؟ لأنه يعمل على :

- 1- محو الملكية الفردية الواسعة لرأس المال
- 2- وتوزيع السلع الاستهلاكية على الأفراد كلّ حسب حاجته
- 3- ووضع منهاج للإنتاج في حدود المجموع نوعا وكما ، ليزول التفاوت بين الأفراد، وتنمحي الطبقات الاجتماعية، ويتساوى الأفراد، فلا أزمات اقتصادية " (3). أما :

ج- الاقتصاد الإسلامي :

قد وقف من الموارد المالية موقفاً وسطاً، إذ نجد فيه : "من الرأسمالية أحسن ما عندها، وفيه من الاشتراكية خيرها" (4). لماذا ؟ لأنه كان يحترم الملكية الفردية المقيدة بعدة شروط منها :

1- التخفيف من رأس المال

2- ما دعا إليه الاقتصاد الإسلامي من البر بالطبقات الفقيرة

3- ما أتى به من تشريع، يحفظ أموال الأمة والأفراد

نلاحظ كما يلاحظ غيرنا من خلال هذه التعاريف الثلاثة المتعلقة بمفاهيم الاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي والإسلامي. أن الاقتصاد الإسلامي كان يمتاز بالوسطية والاعتدال في معالجته للموارد المالية، إذ جعلها وسيلة لا غاية، أعني بما خدمة المجموعة البشرية، بصفة متساوية، لا إفراط فيها ولا تفريط، حيث أقر الملكية الفردية المقيدة بقود شرعية، كإخراج جانب مهم منها إلى الطبقة الفقيرة، يدعى عندنا الزكاة والصدقة والإحسان والبر، إلى جانب التضامن الاجتماعي بين ذوي رأس المال والطبقة الفقيرة.

بذلك حقق الاقتصاد الإسلامي روح التعاون الصادق بين مجتمعه الإنساني، وبالتالي - المحبة والتوَادُد تطبيقاً للمثل القائل - توَادُّوا تَحَابُّوا.

بهذا السلوك الممتاز، ينتفي بينهم الحسد والبغضاء، ونزول الأنانية المفرطة، ويحل محلها التعلق بالوطن الكبير، بناء على تلك الرابطة المتينة، والسيرة الطيبة والمحبة الصادقة التي تجعلهم كالبنين المرصوصين بشدة بعضهم بعضاً، أعتقد جازماً أن المفزات الاقتصادية التي نراها ونعيشها اليوم عند الدول التي تدين بالمذهب الاقتصادي الرأسمالي، لا وجود لها عندنا. لماذا ؟ لأن منهننا الاقتصادي، قد غرس فينا حب بعضنا بعض وجعله من باب الإيمان الصادق. فسخر تلك الموارد المالية لصالح المجموعة البشرية بدون

استثناء، إذا كان الأمر كذلك نقول :

2- ما هي خصائص الرسالة الإسلامية ووسائلها في سياسة

الموارد المالية ؟

لقد عملت السياسة المالية الإسلامية على تحقيق التوازن بين الموارد المالية ومصارفيها، بحكمة مضبوطة، إذ قسّمت الموارد المالية آنذاك إلى قسمين :

- 1- إما أن تكون ضريبة على الأرض كالحراج
- 2- وإما أن تكون عن أشياء أخرى غير الأرض، كالجزية والفيء، والغنائم والضريبة واللقطة، والمال الذي لا وارث له، والأموال التي صالح عليها المسلمون أعداءهم، والزكاة.

أ - فالحراج : " هو مقدار معين من المال، يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة، وعن الأرض التي فتحها المسلمون عنوة، وعن الأرض التي أفاء الله بها على المسلمين، فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج"، كما يؤخذ أيضا من المشركين الذين بقوا في أرضهم، بموجب الاتفاق المبرم بينهم وبين المسلمين. نرى أن هذا السلوك الطيب من قبل المسلمين، تجاه أشد الناس عداوة لهم، يدل على معاملة مرضية، لأنهم يطبقون ما جاء في القرآن والسنة النبوية التي كانت تأمرهم بمعاملة غيرهم من الناس - بدون تمييز، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين- معاملة حسنة.

والخراج المفروض على الأرض التي بيد أصحابها، كان بسبب تحقيق الأمن لهم، كما أنهم - في هذا الصدد- لا يختلفون عن المسلمين في شيء،

لأن المسلمين كذلك كانوا يودون الخراج والزكاة معا إلى بيت مال المسلمين أو إلى الفقراء.

كما أن هناك أقساما أخرى من الأرض، لا يفرض عليها الخراج، وإنما يؤخذ منها عشر ثمارها، وتسمى الأرض العشرية التي لحصتها الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية ص: 131 في الأنواع التالية:

1- الأرض التي أسلم أهلها دون حرب، تترك لهم، ويدفعوا عنها العشر فقط

2- الأرض التي ملكها المسلمون عنوة إذ قسمها الخليفة على الفاتحين، تعتبر أرض عشر.

3- الأرض التي أخذت من المشركين عنوة، تعتبر غنيمة، فتقسم بين الفاتحين، فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلتها " (7).

يتحلى لنا من خلال هذا العرض، أن الخراج قسم من أقسام الموارد المالية التي سحرته الرسالة الإسلامية، كوسيلة لخدمة المجموعة البشرية، بصفة معتدلة، إذا جعلت القائمين على جبايته فقهاء وعلماء وأتقياء، لا يخافون في الحق لومة لائم.

ب- الجزية : هي مبلغ معين من المال، يدفعه الذمي من أهل الكتاب، وتسقط بالإسلام بدليل قوله تعالى : "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" النوبة 29.

لقد " وجبت الجزية على أهل الكتاب، كما وجبت الزكاة على المسلمين، لتدل على تساوي الفريقين في التمتع بالحقوق والمرافق العامة للدولة: " إذ ليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة...

ومن وجبت عليه الجزية، ومات أو أسلم قبل دفعها، لم تؤخذ من تركته، ولم يطالب بها ورثته" (8).

ومقدارها يدل على مراعاة قدرة الذي ستؤخذ منه، كما أشار إلى ذلك أبو حنيفة بقوله :

1- الأغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما

2- والمتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما

3- والفقراء يؤخذ منهم إثنا عشر درهما (9)

نستنتج من وجوبها ومقدارها، أن موقف الرسالة الإسلامية من الموارد المالية المجموعة في بيت مال المسلمين، كان يتسم بالرفق والعفو والحق قال محمد صلى الله عليه وسلم : "من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" وقال أيضا : "ليس في أموال أهل الذمة إلا العفو".

ج- الفبيء : " هو مال وصل من المشركين للمسلمين عفوا من غير قتال، كان للنبي صلى الله عليه وسلم خمس الفبيء، يقسم خمسة أسهم متساوية : كل سهم منها لأربابه عملا بقوله تعالى (10) : " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" الحشر 7

د- الغنيمة : " هي كل ما أصابه المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال، كالأسرى : وهم الرجال، والسبي: وهم النساء، والأطفال والأرضون والأموال" (11)

تقسم هذه الغنائم، حسبما أشارت إليه هذه الآية كقوله تعالى : "واعلموا أنما غنتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" الأنفال 41

هـ - الضريبة : هي المال الوارد لبيت مال المسلمين، المقدر على الأرض كالمخراج، أو عن أشياء أخرى غير الأرض، كالفيء والغنيمة والجزية التي يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم : " ولما جاء الإسلام قلب هذه الحال على ضدها، ففرض على الأغنياء ضريبة لمصلحة الفقراء سماها الزكاة، وتوخى في جبايتها صرفها أسسا من العدل والنظام لا يوجد في أي مذهب من المذاهب الحديثة" (12).

والعشر : هو المال الذي يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التي تدخل بلاد المسلمين وموانئهم، يراعى في ذلك قدرة صاحب تلك المتاجر والسفن، أي لا يكلفهم فوق طاقتهم المالية

ز- اللقطة : هي المال التي كانت ترد إلى بيت مال المسلمين، والتي لم يعلم لها مستحق خاص، أو التي وجدها إنسان في طريقه.

ح - المال الذي لا وراث له : وهو المال الذي فقد مستحقه الشرعي، يجب على القائم به، أن يدعوه في خزانة بيت مال المسلمين، ليصبح بذلك مال الدولة بدون منازع.

ط- الأموال التي يصالح عليها المسلمون أعداءهم : مثلها كمثل اللقطة والمال الذي لا وراث له في الحكم تماما، لكنها تختلف عليهما في شيء واحد. ألا وهو استحقاق بعض المحاربين جزءا منها، إن رأى رئيس المسلمين ذلك.

ي- الزكاة : سعى النظام الاقتصادي في الإسلام، "للتخفيف من طغيان رأس المال، بأن يزلوا عن حصة من ثراوتهم لصالح الطبقة الفقيرة، تطهيرا لنفوسهم من الذنوب ومن أرجاس البخل والأثرة والطمع التي هي مثار

التحاسد والتعادي والعدوان والفتن والحروب" (13).

ذكرنا هذه الموارد المالية على سبيل الذكر، لا الحصر، كما ذكرنا ايضاً خصائص الرسالة الإسلامية، ووسائلها في سياسة هذه الموارد التي كانت تنسم بالليونة والرفق والعطف والرحمة في جمعها من ذوبها، لا فرق في ذلك بين المسلمين والذميين والمشركين عند حبايتها منهم، لأن أمير المسلمين، يعين الحياة الذين تتوفر فيهم الشروط التالية:

1- حسن أخلاقهم

2- امتيازهم بالثقة والرعاية

3- تضلعهم في الفقه والعلم

4- تقدير إمكانات الذين تؤخذ منهم الجباية.

هذا يحق لنا أن نجيب عن السؤال التالي، فنقول

3- ما هو موقف الرسالة الإسلامية في التعامل بالموارد المالية :

لقد سلكت سياسة الرسالة الإسلامية في جمع الموارد المالية، مسلكاً وسطاً، حيث راعت بصفة خاصة قدرة الذين ستؤخذ منهم تلك الموارد، فلم تلزمهم بنمط واحد، بل يودون تلك الضرائب حسب قدراتهم المالية، مما جعل الاقتصاد الإسلامي محبوباً من قبل جميع الناس بمختلف شرائحهم الاجتماعية والثقافية والدينية.

كما أن المقادير المفروضة على الأراضي والرؤوس، غير خاضعة لنسب متساوية. بناء على ذلك أحيل القراء على المراجع الفقهية التي اهتمت بشرح وتحليل وبيان الموارد المالية المذكورة في أحاديثنا الأنفة الذكر بصفة معمقة، ليرى أن المجتمعات الإسلامية لم تنشئ بمقدار واحد في جمع تلك الموارد المالية إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الاقتصاد الإسلامي لازال

بتفاعل ويتطور حسب الظروف والأحوال مع تشبته بالثوابت. كما أن مصارفها تنفق على مصالح الدولة، وذلك كمرتبات الجنود والقطاة والولاية والترع المائية لإحياء الأراضي الفلاحية وبناء الجسور وإعطاء منح للأدباء ومساعدة الفقراء والإنفاق على المسجونين كالأطعمة والملابس والأغطية، وبناء بعض المؤسسات العلمية، وما يماثلها من المشاريع العمرانية. كل ذلك يقع تحت إشراف ومراقبة بيت المال، حسب حسابات دقيقة مضبوطة من قبل حياة أكفاء، كانوا يمتازون بمعارف ومهارات، لا يخافون في أداء مهمتهم لومة لائم.

بهذا نصل إلى الموارد المالية، هل هي :

4- وسيلة أم غاية في حد ذاتها ؟

بالطبع أن الموارد المالية، هي مقوم وأساس رئيسي لكل دولة، بها، تنهض في جميع المجالات الاجتماعية والعلمية والثقافية والعمرانية، وبدونها تنهار. لذلك لاحظنا عبر أحاديثنا السالفة الذكر أن الرسالة الإسلامية، اعتمدت على تلك الموارد المالية كوسيلة لتحقيق أهدافها الاقتصادية والاجتماعية. مع أن تلك الموارد كانت بدائية، لأن الصناعة وقتئذ لازالت بدائية بأنهم معني الكلمة. ومع ذلك استطاعت تلك الموارد المالية المستعملة من قبل المجتمعات الإسلامية أن تؤدي خدمات جليلة لذلك الاقتصاد الإسلامي، بسبب العدالة والثقة والصدق والإخلاص والزاهة وخدمة الدولة الإسلامية من قبل الجباة المشرفين على تلك الموارد المالية، والمراقبين من لدن الولاة الأشداء تجاه رؤوس الأموال، وذلك كفرض أداء الزكاة عليهم، إن رأوا نقصيرا منهم كما عملوا على استثمار بعض أموالهم في بعض المشاريع الاقتصادية مع العلم أنهم كانوا يحافظون على رؤوس أموالهم، ويمدوهم بنصيب من

الأرباح، ويعلمونهم بأنهم شركاء في الربح والخسارة معا.

هذه المعاملة الطيبة، انتفت الطبقة المحففة في المجتمع الإسلامي.

5- ما هو موقف الرسالة الإسلامية من الأزمة المالية الحالية :

وصلت محلها روح التعاون الصادق والمودة المحلصة والحببة الصافية بين طبقاته الاجتماعية لماذا ؟ لأن الأغنياء يعطفون ويرحمون إخوانهم الفقراء فيمدونهم بجزء هام ما لهم، يدعى الزكاة التي ظهرت نفوسهم من الأثرة والأنانية وحب الذات، وغرست في نفوسهم أيضا حب المصلحة الجماعية التي أشاعت في نفوس الفقراء والمساكين حب الأغنياء عن طيب خسر عملا بالحديث النبوي الآتي : "توادوا تحابوا".

هذه النتيجة الباهرة في المعاملة، تنظف على رؤوس الأموال والعمال معا. لأنهم شعروا شعورا واحدا تحابها، حيث ربطهم التعاون والبر والتقوى والإخوة الصادقة في بينهم التي نزيل الكساد والإفلاس الاقتصادي المعروف عند الرأسمالية والاشتراكية معا.

أما ما يوجد عند الرسالة الإسلامية من نجاح وتوفيق مرده التحابب الإنجابي بين رؤوس الأموال والعمال، فقانون التوريث مثلا، إلى جانب الزكاة، جاء إلى الرسالة : "لمنع تكديس الأموال في أيدي قلة قليلة، للحد من الفروق بين الطبقات، وتوزيع الثروة على أكبر عدد ممكن من الذرية والآباء والأزواج والأخوة والأخوات" (14). هذه الطريقة الحميدة في توزيع ثروة الميت على الورثة، دفعت الدكتور جوستاف لويون الفرنسي في كتابه حضارة العرب إلى القول : "إن مبادئ الموارث التي نص عليها القرآن على جانب عظيم من العدل والإنصاف... لأن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللواتي يزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف حقوقا في

الميراث لا يحدد مثلها في قوانيننا" (15).

لهذا كنّا نرى الروس أصحاب المذهب الاشتراكي، الذين اغتوا الملكية الفردية، قد اتناهم الفشل الذريع، لماذا ؟ لأنهم : استناموا على الكسل، باعتبارهم قد امنوا على حاجاتهم الضرورية وبالتالي، فقدوا كلّ همّة على العمل، ما دام كل امرئ يحزيا على عمله بما يكفل التساوي" (16)، بذلك مالوا بطبعهم إلى الأعمال غير المجهدة بينما وقفت الشريعة الإسلامية من الملكية الفردية موقفا وسطا، إذ أقرّها مع قيود كإعراج الزكاة والميراث والوصية: التي تعترف لكل مسلم بأن يوصي بنصيب من ماله الخاص لينفق في معاونة الفقراء والمشروعات الخيرية التي يعود نفعها للمجتمع الإسلامي.

كما أقرّت أيضا نصيب الفقراء من الغنائم والفيء : "للتخفيف من طغيان رأس المال دعنا القرآن رجال الحرب أن يشركوا معهم في الغنائم المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من القتال" (17)، قال الله تعالى: " واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإنّ الله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" الأنفال 41.

هذه الوطنية التي امتازت بها الرسالة الإسلامية، تجاه الموارد المالية البدائية، استطاعت بواسطتها استثمار كثير من المشاريع الاجتماعية والصناعية والفلاحية وحققت نمطا فريدا من الحب والإيحاء والتعاون والنماء الاقتصادي الذي يدل دلالة واضحة على نجاح الاقتصاد الإسلامي الذي لا يعرف في مسيرة حياته هزات كهزات النظامين : الرأسمالي والاشتراكي، في دول تدّعي العظمة والغناء . أقول من موقعي هذا للمثبثين بالنظامين المذكورين عليكم أن تقفوا وقفة تأمل ودراسة مستفيضة مزودة بمنهجية نظر وتحقيق وعدم انجياز، لتعلموا علم اليقين أن الاقتصاد الإسلامي هو الاقتصاد

الوحيد الذي حقق التحاوب الإنجابي بين العمال وذوي رؤوس الأموال.

الهوامش:

- 1- مطبوعة عقيف عبد الفتاح / روح الدين الإسلامي / 318
- 2- نفس المصدر / 319
- 3- نفس المصدر / 319
- 4- نفس المصدر / 319
- 5- نفس المصدر / 319-320
- 6- د. حسن ابراهيم حسن / تاريخ الإسلام ج 1 / 461-462
- 7- الماوردي / الأحكام السلطانية / 131
- 8- د. حسن ابراهيم حسن / تاريخ الإسلام ج 1 / 470
- 9- نفس المصدر / 471
- 10- نفس المصدر / 471
- 11- نفس المصدر / 473
- 12- نفس المصدر / 443
- 13- مطبوعة عقيف عبد الفتاح / روح الدين الإسلامي / 320-343
- 14- نفس المصدر / 320-321 <http://Archivebeta.Sakh>
- 15- زعتر محمد عادل / الترجمة العربية / 416
- 16- مطبوعة عقيف عبد الفتاح / روح الدين الإسلامي / 322
- 17- نفس المصدر / 323



ركن: أمشي إلى أمسي...

تحية إلى روح محمد المختار



بن الحاج نصر

بقلم: الأستاذ يونس أحمد اليهي

جدي محمد... وسيدي المختار...

وإصبع الشكلاطه

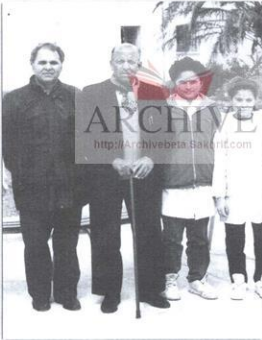
السلام عليك سيدي الأول ومعلمي ومديري الأول ومرابي الأول...
السلام على روحك الظاهرة وذكراك العظيمة وبصماتك الأزلية التي
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
تركتها في أجيال متتابعة.

بدأت في قراءة رسالة صديقي العزيز (حسن الرفاعي) بكل لذة ومتعة
تطير في الذكريات وتتقاذفني إلى أكثر منه ثلاثين سنة ورائي إلى أن
صدمني سطر منها حطني أرضاً وأرعد فرائصي واقشعر جلدي وصبَّ
عريقي...

أقرأ الجملة وأعيدھا آملاً خطأ في التعبير أو التباساً في المعنى... أقرأ...
أعيد... أتمحص... أنفحص... ولكن... لا فائدة.

عشت لحظات عديدة ولسان حالي يردد بكل تطابق إحدى أبيات
المتني في رثاء أخت سيف الدولة.

طوى الجزيرة حتى جاءني بحر ** فزعت فيه بأمالي إلى الكذب
ولكن (حسن الرفاعي) كعهدي به لا يخطئ التعبير ولا يقصر في التبليغ
ولا تختلط عليه المعاني... لقد توفي معلّمي الأول سيدي (المختار بن



نصر)... أول
من أحتفظني
في إحدى أيام
أكتوبر من
سنوات
الخمسينات...
أول رجل
أنست إليه
بعد جدي
محمد بن
يونس الذي

سلمني إليه أمانة غالية في عهد كانت تحفظ فيه الأمانات بكل حرص
وبكل وفاء... وانطلقت في يومها أوائل الأشياء في حياتي على

يدي (المختار بن نصر) جثت من ريفي البريء والصافي... البدوي
الفطري وفي صدري ثمانية أحزاب قرآنية حفظتها تحت رعاية جدي
وعلى أيدي مؤدبين كان يستقدمهم على حسابه خصيصا لتعليمي
القرآن الكريم ضمن زمرة من أبناء المنطقة كلها.

دخلت مدرسة النصر القرآنية يوم سبت نسيت تاريخه أذكر أنه من
العشر الأوائل في أكتوبر... وكان بالمدرسة مبيت يضم بعض من
التلاميذ كنت يومها أصغرهم.

وكان لا بد أن أسجل بالمبيت وليس هناك من حل غير ذلك... كان
كل شيء غريب بالنسبة لي... ففي أول مرة أغادر فيها منطقة (بهبو)
لأنزل على القرية... كنت أنامل الشبان والسوارع والطرق
والفوانيس الكهربائية وكثرة الناس واختلاف لباسهم والدكاكين القليلة
آنذاك والكثرة في عيني.

لقد أنستني غربة ما كنت أشاهد كل مخاوفي والوحشة التي تنتظري
وحتى الدموع المنهمرة من عيني أمني عندما كانت تودعني مدركة أنها
لن ترائي إلا مرة في الأسبوع في أحسن الحالات.

وتراحت الأفكار في رأسي الصغير وكثر ارتجاج جسمي وارتخاء
أعضائي.

دخنا المبيت واعترضنا المدير ومسكني جدي من يدي وشدة عليها شدة لم أستعد تسريحتها إلى الآن ولا أريد أن أستردها. قال جدي (هذا عمك المختار باش يقربك حتى تولي راجل).

عمدها شعرت بخطورة الموقف وجديته.. علمت أنني لن أعود معه إلى البيت بل سأبقى في المبيت ولا أدري ما الذي ينتظرني. بعد ذلك شعرت بانتفاخ في صدري وغصة في حلقي واصطكاك في أسناني تجمعت كلها لتنفجر فجأة دموعا وارتجافا وشهقة تهزني هزا.

كنت أريد أن أخفي ذلك لكن الأمر كان أقوى. وتقاذفني كلمة جدي (باش تولي راجل) إلى الأفق القصير الذي كنت أراه أمامي ولا أفهم منه شيئا...

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وفيما أنا في هذه الحال أصارع تقلبات جسمانية وعاطفية وتفاعلات لا أستطيع وصفها أذ بسيدي المختار يأخذني من جدي بيدين رقيقتين ليتنين ويمد لي شيئا أسود مستطيلا في شكل مربعات مترابطة... لا يتجاوز طولها الإصبع... اندثرت إلى مخاوفي أمام الشيء المقدم لي وحل محلها حب إطلاع وتطلع إلى معرفة هذا الذي يريد سي المختار أن يسكنني وينسني جساماة الموقف...

-(أش اسمه)

-(يونس بن أحمد هو ولد ولدي)

- (خوذ يا يونس: هذه أسماها شكلاطه... كوها... كل يوم نعطيك منها... ما تخافش جدك يحيي يشوفك كل ما يهبط لسليانه وكل يوم أذا يحب).

عندها تأكد كل شيء عندي... لن أعود مع جدي إلى "يهو".. سوف أبقى هنا... سوف أبيت هنا... سوف أستقر هنا... أكل وأشرب وأنام هنا وما عدا ذلك لا أدري شيئا مما سيجري ولا أعلم شيئا عما في رجفات متتابعة.

ونظرت إلى جدي الذي علمني ألا آخذ شيئا من أحد فحياتي بابتسامة موافقة أرادها بعبارات أرادها مطمئنة مشجعة.
- هناك سيدك المختار خوذ من عند وكل حاجة يعطيها لك وأسمع كلامه في القسم.

في القسم...؟ أي قسم...؟ ما معنى هذه الكلمة...؟ ماذا سيفعل بي هذا الرجل...؟ ولكن لهذا الطرح آفاق أخرى وتتابع آخر وتطورات أخرى...

قدمت من أصبع الشكلاطه قذمة صغيرة خفيفة للاكتشاف فقط فشعرت بطعم يحيل إلى المرارة ثم قذمة أخرى شعرت بتغير الطعم فيها وثالثة ولكن شهيتي لم تكن مفتوحة للمواصلة وكنت في بداية أيام تواجدي بالمبيت أعتقد أنني متميز عن غيري من (أليانه) لأنني كلما

أردت شكلاطه إلا وذهبت إلى سيدي المختار فكان أما يعطيني هو منها أو يحولني إلى القيم أو الطباخ أو غيرهما من المسئولين.
(بالله أعطيه إصبع شكلاطه هذا)

ومن يومها صار للشكلاطه طابع مميز في حياتي... كانت انطلاقتي في المدرسة معها وبها ومن يدي سيدي (المختار بن نصر)... ولازمتني الشكلاطه وطعمها طوال حياتي وكل ما تحولت إلى بلد في تونس أو أوروبا وآسيا والآن في الخليج... كلما دخلت محلا تجاريا من هذه المحلات الضخمة المترامية وكلما مررت أمام الشكلاطه إلا وشعرت بلساني يتحرك داخل لثاتي وبطعم المرارة الأولى التي تسربت في فمي إحدى أيام أكتوبر منذ ما يقارب الأربعين سنة.
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
سيدي (المختار)... صورتك في ذاكرتي هبة ووقار... ورنين صوتك في أعماق ذاتي علم ومعرفة وموعظة وأخلاق ونصائح لا أعتقد أنني خطوات خطوة واحدة في حياتي بدولها... وذكراك إخلاص وحب وتضحية لمن تربوا على يديك وأنا منهم ولكن بامتياز خاص جدا... ذكراك كل هذا... ذكراك عندي علم... وأدب وأخلاق... وشكلاطه.



جدّي والأربعين حرامي

شعر: حيدر الحفاجي (العراق)

وحيد أعود إلى نفسي

مثل طارق

أو زياد

يداي ترافقني بلا متعة

سوى أنها وزعت يوماً

الخبز على البؤساء

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بغير حفيف عانقتني

أخفيت رجولتي

فقد صدنت كسيوف أجدادي

وحدي سأشربهم

وأحمل مصباحي

لأعلي جيل

سأقصّ خياناتي

للقادمين،

وأذبح حصان جدّي

لأعمل (الممبر كـر)

من جلده

سيثور جدّي في قبره

احتجاجاً

فيخرج اليتامى

من غمامة الحروب

والمندبل،

قرصان للسفن

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

السفن،

قرصان يقبع في (ص ، ب)

يرقب القادم

عيناك يا جدّي مأساتي

أنت من أنبت أبي!!

وأورثه سيفاً صداً

أنت من أطعمه تاريخ العنقاء

وحكاية (الأربعين حرامي)

كانوا تسعة وثلاثين

فأكمل جذي الأسطورة

أنت من وزع عظامه النخرة

على أحفاد القبيلة

ووارى سؤته في الخيمة

أنت من قلدنا البرص

وعلمنا شهوة الجسد

وأن نؤمن كالأحرين

بالزواج.. والقبور

في آخر الأيام

ستستهيك المومياء

يلوذ الشرق في

هرم القبيلة

والصقر عيون لأمي

وهي تصنع الخبز



الحبز ذاكرة سمراء

تنبت دبابيسا للخيمة

سيدخل الماء

فثنام تحت الوسادة

قبائلا وشعوبا

لا مثيل لك

وأنت تنبت

حدود القبيلة



تاركا الباب للقادم

وحيد أعود إلى قبيلتي

كأي (سبية)

لوثوا لساني بلعابهم

فمات عصفور الحبي الحزين

في الليالي القادمة، سأموت

فيلفني حفيدي بقصيدة

على (الأنترنت)

سيدخل التاريخ
فتخرج إلى الباب
سيخرجون من المصابيح
ينتعلون الجثث
والصقر أم مفجوعة
تلتهم (الصحف) والمقاهي
سيخرجون إلى جذي
وهو يقبع خلف أنفه
يصنع السيوف والخيز
الخيز
يفترش الصحراء
فيدب الدود تحت
عباءته السوداء
العباءة,
أحداق المصلوبين
أحزان راکضة

ستشتهيني الصحراء

أنت خنجر يذبح الليل والقبيلة

عينك يا جدي مأساتي

وأنت تصنع السيوف...

(الخنز) متعة البؤساء,

البؤساء,

سيوف لأجدادي

أجدادي,

ARCHIVE ... للقدامين

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

خيمة للبرص

الخيمة,

شهوة وقبور

القبور,

حدود قبيلتي

الحدود,

ليال قادمة تنتظر القادم...

حادث موجز

شعر: ليث فائز الايوبي

عادة ما أمد يدي لاستعادتهما.. عنوة

من يد أحكمت شدّها.. في الضباب!

يصادفني بلبل يابس لصق نافذة

قهقهات دمي خلف واجهة

بائع.. يتفحص صف الثياب

رنين دموع على العشب.. تسقط

وقع خطي امرأة عابرة...

تنحني لالتقاط حقيقتها من على الأرض

تسألني وهي تجتازني بارتياح.

إذا كنت أذكرها.. آسف

آسف.. ليس لي ذاكرة

.. تخفي من أمامي بلا ضجة

يتناهي إلى أذني

وهي تمضي إلى شأها

زهرة سقطت من كتاب!

تصادم سيارتين ببعضهما

احتدام نقاش لجمع غفير يطل على جسد امرأة

دهستها اطارات سيارة خاطفة

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

..ومرور غراب

..تنحني العاصفة

حين ترفع جنتها فوق نقالة من على الأرض

في هلع.. وبهيم التراب

على وجهه.. باكيا.. حاملا خلفها باضطراب.

وردة سقطت من كتاب!

الصباحيات

شعر: يونادم بنيامين

فجرا مع أول الطير

وهديل اليمام

مع أول الضياء

ونجمة المشرق

في كبد السماء

فجرا مع الشمس الخجولة

تمرح في الحقول

ترسم وجوها <http://Archivebeta.Sakhril>

ملينة بالمسرات

أسراب من الطيور

والغيوم السابحة

في الكون

بشائر وقصائد ومرجان الصباحيات،

والعشب الأخضر الخجول

المطرز بقطرات الندى

والذهب والبلور

مرايا الأقمار
بخط الغدران
ورشاقة قطعان الغزلان
مواويل الوقت
قطارات الشرق
صفارات الوصول
عشاق, متعبون, عمال, عتالون
رسائل عتاب
عشاق وقرويات
حقوق مضمّنة
ARCHIVE
<http://Archivebeta>
بالنخيل والأعشاش
والمياه والجداول
والأفق البهيج
وكؤوس من الندى
الذهبي والنفوس وأغصان-الآسى-
شعراء, قصائد
بلون الصبايا وأطواق الياسمين.



تَحِيَّة

شعر: منصور أحمد اللّطيف

من وحي "تحديات في الزمن المازوم"

(إلى الصديق عبد السلام لصيلع)

قصائدك المضمّخة الطّوب

عبر للعقول وللقلوب

لکم تحلو لصاحبها التّهنّي

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لما للصدّق من سحر عجيب

تبارك شاعر سلمت خطاه

تحدّى العسر في الزّمن العصيب

وخير الشعر ما فاضت رؤاه

من القلب الصّدوق بلا رقيب

فعانقت الحياة بلا حدود

وأرّوت مهجة العاني الكئيب

وناصرت المبادئ في شموخ

وحبّت السلام إلى الشعوب

لقد حرّرت عنقك من رباط

عسى تتراح عن عنق السليب

قيود القهر والتشريد جوعاً

قيود الدّل والمكر الغريب

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لقد ضجّت شعوب الأرض جوراً

فهل تفنى مباركة الحروب..؟

أجدّد يا رفيق الحرف شكري

وأدعو الله للخلّ الأديب

عسى التوفيق يتبعه انطلاقا

ونعم النصر من ربّ مجيب

أشواق

شعر: محجوبة الجلاصي

بدون عينيك

كبحر بلا أسماك

وقطب بلا ثلوج

بدونك عنواني

ARCHIVE مفقودة..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وقصائد عشيق

ممنوعة

بدون عينيك أنا

مدينة بلا حضارة

وكتاب بلا حروف

فلا تتركني

لكي لا تجرح

المرايا أحلامي

أحبك يا رجلا

زرع في جسدي

حرارة..

وأقتلع أحزائي

وأتوجني أميرة

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في قصره

أهواك يا أنت

بعنف ولا خجل

فردني من عشقك

ومن حنانك

الذي لا ينضب

غرامك

شعر: محمد برهومي

غرامك لم يكن إلا

كزوبعة بفنجان

كوهم في مخيلتي

وحلم زائف فاني

لقد حببتك عيني

ولم يعشقتك وجداني

ARCHIVE

<http://Archive.org/details/197>

سوى تمثال إنسان

أنا لم أدري من قبل

بأنك لست عنواني

وأنك لست عاصمتي

وأنك لست شطائي

أنا أهفو إلى سكن

وأحضان كأحضاني

إلى حسناء ملهمة بمجد لا يعقيان

قيم بحب أشعاري وتعشق سحر أوطاني

قصائد

شعر: عبد الله عباس

*هو

يروض الغيم

ويعيد، تحت المطر، كتابة

نشيد الحياة

يقرأ خريف الماء

ويتطلع إلى حضن الجبل

وعلى قمة صرح النور

يبنى الحبة..

*أنت

لم أنت تلمين خيوط اندهاشك

وتغزلين نفسك

كي تعلمي ما أريد!!

دعاء واحد منك كاف..

لتغني جميع الطيور

نشيد الحياة

وهي حلقة

وترقص لها



جميع الأشجار

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

دعاء واحد منك كاف

كي يصير هو دروينا

حتى الذوبان

في ذكر احتراقه الذاتي



دعاء الفجر

قصة: عبد القادر المعالج

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل.. الطقس عابس.. والبرد قارص.. كانت الريح تعصف بشدة، فتحترق السماء.. من البرق.. فيزجر الرعد.. فينهمر المطر مدرارا.. في مبيت رأس الطاية وحوله انطفأت جميع المصابيح الكهربائية لتزيد الطقس حزنا على حزنه، لم تكن هناك أية حركة رغم قرب موعد الامتحانات السادسة. كان الطلبة يغطون في نوم عميق بل لعلهم كانوا لا ينامون فعلا لأن تلك الطبيعة الشائنة لا يمكن أن تترك أحدا ينام، لكنهم كانوا على كل حال تحت أغصانهم الوئيدة يتدثرون. في الدور الأعلى من المبيت كانت هناك غرفة شاذة عن غيرها من الغرف الأخرى.. كان مصباحها يرتعش كأنما كان هو الآخر خائفا.. كان صاحب الغرفة يصارع بمفرده الطبيعة الهائجة الماثحة.. رغم شدة البرد كان سالم مصرا على إنهاء المراجعة في تلك الليلة لكي يكون على أتم الاستعداد يوم الامتحان.. كان في شبه غيبوبة عما حوله عيناه مغروستان في أوراقه لا تفارقها لحظة. لكن في النهاية ورغم إصراره المتزايد أجبره تظاؤل النور على أن يرفع عينيه وأن يوجههما نحو النافذة ليصغي إلى ما كان يجري خارج المبنى

الصامد في وجه الرياح والأمطار، عندئذ بدأ سالم يفكر في الكون وفي المستقبل وخصوصاً في والدته العجوز وهي تعيش وحيدة بعيدة عنه.. في بيت قديم، ببلدة فقيرة. ففكر طويلاً في تلك العجوز التي لا عائل لها سواه.. لم يكن لها من دخل سوى عشرة دنانير يخصمها من منحنه ويرسلها إليها في نهاية كل شهر بواسطة عمدة القرية "العم صالح" الشخص الوحيد الذي كان يتصل بها من حين إلى حين ليسألها عن صحتها وحالتها. لا بدّ أنها كانت في تلك اللحظة تؤدي صلاة الفجر متضرعة بالدعاء إلى ربها حتى يعين ابنها على إتمام دراسته ويعود إليها لتقضي معه كل ما بقي من أيام حياتها. لقد ذكرت له هي نفسها مرة أنها لا تترك فجرًا يمر دون أن ترفع يديها إلى السماء داعية له بالخير كل الخير، وبينما كانت تلك الأفكار تتخالج عقله وتناجي روحه أبي المصباح في النهاية إلا أن ينضم إلى عناصر الطبيعة المتأمرة عليه فانطفأ وغمر الغرفة ظلام دامس. انتظر سالم لعل النور الكهربائي يعود من جديد لكن بدون جدوى عند ذلك أسلم أمره إلى الله فقام وتوضاً وجعل ينتظر أدى صلاة الفجر في خشوع. لما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود عن له أن يكتب رسالة إلى "العم صالح" ليسأله عن حال ووالدته وصحتها وليتولى بدوره طمأنتها عن حسن حاله وتقدمه في الدروس. أشعل شمعة وجلس أمام مكتبه من جديد وأخذ يخط

بعض الأسطر ويداه ترتعشان من شدة البرد ولعلهما ترتعشان من الخوف.. الخوف من المجهول. وبعد أن أنهى كتابة الرسالة اندس في فراشه لا لينام طبعاً بل بحثاً عن قليل من الدفء في انتظار موعد الذهاب إلى الكلية التي تبعد عن المبيت بحوالي عشرة كيلومترات.

في الصباح الباكر أخذ سالم محفظته والرسالة التي كان يريد توجيهها إلى "العم صالح" وغادر غرفته متوكلاً على الله كعادته في سائر الأيام. قال مهدوء مشوب بالحذر: "يا ربي العمال عليك". في أسفل المدرج كان الحارس واقفاً وكأنه ينتظر أحداً ولما رآه سالم أوجس خيفة وقال في نفسه: "إن شاء الله خير" سلم الحارس إلى سالم برقية دون أن ينبس بشقة كان الحارس يعرف أن البرقية لا بد أن تحمل أنباء هامة، إما تدخل الغبطة والسرور وإما تزرع الألم والحزن، وكان يعرف سالماً منذ حوالي أربع سنوات ويعلم أنه شاب من عائلة فقيرة ليس له في هذه الدنيا إلا أمه العجوز تعيش في قرية نائية لذلك لم يجرأ على الكلام وسلم إليه البرقية في وجل.. فتح سالم البرقية بيدين مرتعشتين خائفتين قائلاً في نفسه "يا ربي سمعنا علم الخير" بمجرد ما بدأ يقرأ "البركة فيك.." سقطت الورقة من يديه وهوى على الأرض صائحا: "ماتت.. ماتت.."

بين أحضان الطفولة

قصة: نعيمة الوسلاتي

توارت ظلال السكون وتبدد السواد، وانبثق الصباح الجديد من رحم
الظلام الكئيب، فنثر ضيائه الخافت على المدينة النائمة وبعث ديب الحياة في
أوصالها. بدت السماء متلفة برداء رمادي يغمرها بالدفء و التعممة. بدت
هادئة حلي بالخير و العطاء، زاهرة بالأمل و الرجاء. بدت كل غيمة فيها
فما ضاحكا توج فيه ابتسامات لامعة ووعود صادقة...و أقبلت النسائم
متمايلة كأنني بها تزف بشرى سعيدة. وفي لمح البصر أشرق البرق وأرعد
الرعد واندفع السيل واسترسلت خيوط فضية. استرسلت في اتساح رائق
وبصوت متناغم لتتساب في أحشاء الأرض. فيسكن نائرها وتورد جوانحها
وترتوي شغافها وتهدأ ثورة الأمل التي ما فتئت تعتلج بين طبائها من فرط
الحر والقحط والجفاف...
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تقاطلت في سحاء وكرم كبير. جادت بها رحمة الله لعباده وأرضه
وزرعه وضرعه. لتعلمنا أن وراء كل ليل دامس صباح جميل. ووراء كل
عسر يسر كرم ووراء كل أزمة فرج عظيم...

تجادت في مشهد سحري يأخذ القلب وينعش النفس. أقبلت في
موكب حافل: أصوات مرعدة مجلجلة كطلقات البنادق. وأضواء ملتعة
تخطف الأبصار.

أطلت عروس السماء متلفة بالنور. ترسل حبات لؤلؤية برّاقة تتناثر
على أديم الأرض فتزيده إشراقا و صفاء. أقبلت في موكب بهيج فأسعدت
الحاضرين. تهللت الوجوه وانفجرت الأسارير. و انطلقت الزغاريد. كرم

من الله ومته وعطف وسخاء وفضل عظيم... ذهب الضمأ وابتل العروق
...انهمرت فانتعشت الكائنات وأقبلت النسائم النديّة مرفرفة كطيور
الصباح الجميل لتغمر المكان سحرا وجمالا.. أقبلت محمّلة بالرضا و
السعادة.. أقبلت محمّلة بالبشر و الحبور..محمّلة

بالمدايا و العطور. فهرعت إليها أستقبلها. أضمتها. ألتئم حباها. أرقص على
وقع أقدامها... أمد كفيّ ... تتساقط زخات زخات... تبلل وجهي
وشعري وعنقي ثم تسري في جسدي وتطفئ نارا أوقدها الحرّ وأذكاها
الضمأ... أشرب من حلو مائها فتنتعش أوصالي ويرتوي أديم روحي وتزهر
أعالي...

عادت إلينا بعد طول الغياب...فارتسمت الفرحة على وجه اليابسة
وهي الغيث النافع..واستحالت الوحشة أنسا.. وسرت الحياة بعد الموت. ثم
فاضت المياه ومشت تدفق تدفق السيل المنحدر. فاحضرت الأرض
وأينعت. واكسّى وطاؤها حلّة زاهية تعبق بشذى الورد و الرياحين .

انقشعت الغمام وأسفر النهار وأطلّت الشمس في كامل توهجها
متوّجة بالنور والضياء فأرسلت خيوطها الذهبية لتنير أرجاء المدينة وشعابها.
دبّت الحرارة ونشطت الحركة واندفعت أفواج كثيرة من الناشئة لتحتويها
المدارس وتحتضنها قاعات الدرس بعد عطلة طويلة بين أحضان النسائم
العليلة وروائح الياسمين العطرة، على بساط الرمال النديّة حيث يحلو السمر
ويطيب السهر تحت الأضواء الرافضة على مياه البحر الساكنة و أنغام الليل
السّابحة.

استقبلت أحلام باقة من الورود الجميلة مختلفة الألوان و الأشكال و
العطور. أقبلت تنظائر كالفراش تنصايح وتقفز وتنطط في هو ولا مبالاة

مشيرة ثم تندفع كالسيل الجارف في عفوية وحرية كبيرة... زهور غضة، ذات أجسام صغيرة وأعواد طرية ورؤوس جميلة وعقول فطنة.

استقبلت تلك السنابل الفتية، تلك الناشئة ذات العيون المتطلعة و الأعناق المشرّبة و الوجوه النيرة. وانحنت أمام طفولتهم العذبة، أمام عفويتهم وبراءتهم وأحاسيسهم المرهفة.. انحنت أمام ذلك الجمال المترقّق في عيونهم.. أمام تلك المرأة الصافية التي ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متألّكاً فنحترّ بين يديه ساجدين.

رأت في أعطفاتهم مخايل الطهر و النقاء وقرأت في عيونهم أحلاماً كبيرة وآمالاً عريضة وخيالات واسعة.. جلسوا في مقاعدهم، لم يحركوا ساكناً... كان اهتمامهم منحصراً في شخصها...

جلسوا اثنين اثنين، ذكورا وإناثاً، في ملابس جميلة وأحذية جديدة ومحافظ تنوء بحملها ألاملهم الطرية وظهورهم الصغيرة.. أيديهم مكتوفة على ظهور المناضد، أفواههم فاعرة ونظراتهم شاردة.. كان الخوف يسيطر على ملاحظتهم. فبدت أصواتهم ضعيفة ونظراتهم مترددة وحركاتهم مضطربة، قد أرهقتهم ملابسهم الكثيرة وحقائبهم الثقيلة. تصبّب عرقهم وذوت عيونهم وجمدت ملاحظتهم فبدوا عصافير ضمانة قد أهلكها الحرّ واستبدّ بها العطش وأصابها الاحتناق... بادرت إلى شدّ الستائر وفتح النوافذ... ثم روت ظمأهم ببعض الماء المتوقّف أمامها ومسحت على وجوههم ورؤوسهم فتبدّد قلقهم وحرّت بينهم حركة نشيطة فيها شيء من الانتعاش و الصحوة و الاستعداد... فاحتضنت تلك العيون اللامعة وتلك البسمات المرسومة على الثغور الغضة و انفتحت بينهم مساحات بيضاء وأرضية خصبة للتعارف و

التألف... انفتحت بينهم أبواب الحياة على مصراعها ليعيشوها سويًا
ويتصفحوا مختلف جوانبها وأوجعها.

في ضعفهم قوة رهبة تجذب نحوهم وتشدك إليهم فتندفق مشاعرك
تدفق ينبوع الصافي بالعذب الزلال فتنسى نفسك وتنشغل بهم وتذوب في
عالمهم. عالم بديع وفضاء رحيب وحقل خصيب فيه تثبت كيانك وتصلح
ذاك وتستثمر خبرتك وتجسم مبادئك وتحقق أهدافك فتسهم في إعداد
ناشئة واعية، متبصرة، طموحة، مبدعة، قادرة على التكيف مع المستجدات
في مختلف الميادين وال مجالات... عالم جميل ومحراب عظيم ينأى بك عن
مفانن الحياة ويسمو بك عن الزيف والدنس والخداع وبأخذك إلى ببادر
الطهر والبراءة والصفاء لتسكب في بريق أعينهم عصارة بذلك و عطائك
وتريق في أعماق سرائرهم خالص محبتك وعشقك وإلهامك.. محراب طاهر
تنصهر فيه ذاك وتتجلى فيه روحك فتعاليق شرف المهنة وقداصة المهمة
وتتفتح أمامك دروب التصحية والكفاح المتواصل والنضال المستميت.

جلست بينهم تجاذبهم أطراف الحديث. تعلقت نظراتهم بوجهها
الباسم، بحركاتها الخفيفة وسكناتها المهيبة، بكلامها اللطيف، وهندامها
الجميل ومظهرها الأنيق... يبحثون في ملامحها عن أم ثانية، عن يد ناعمة
تأخذهم برفق، تربت على أكتافهم وتمسح على رؤوسهم الصغيرة...
يبحثون عن قلب زاهر بالحبة مفعم بالمودّة مشحون بالعطف والحنان ينهلون
من فيضه، يرتوون من نبعه... يبحثون عن ذلك المثال الذي سيتعلمون منه،
عن تلك القدوة التي سيحاكونها، عن تلك المعلمة التي ستشجعهم وتوجههم
وتنصّبهم... يتوسلون إليها بنظراتهم البريئة ويتشّبثون بأذيالها لتحنّينهم مرارة
الحياة وتساعدتهم على التألق والنجاح... يبحثون في عيونها عن المشعل و

النيراس و الأفق الزاخر بآمالهم وتطلعاتهم... عن رسول الخير و المحبة و المعرفة الذي يعلم ويرتقي و يقوم في رفق ولين ورحمة.... يرمون بأنفسهم بين أحضانها ويتخفون من ضعفهم وحرقتهم ويحملونها عبثا ثقيلًا وأمانة جليلة وعهدة حسيمة لا تأنس في نفسها الدفع لأدائها وتحمل أعبائها غير ذلك الانتماء الشديد والمحبة الصادقة والرغبة الملحة في العطاء بدون حدود لهذه الطقولة الربيثة. عطاء لا تتمنه غير تلك السعادة التي ترسم على وجوههم المشرقة وذلك البشر الذي يتلأأ في عيولهم المتطلعة.

تناثرت السنون من عمرها تناثر أوراق الخريف اليابسة فوق الثرى ونأى بها الزمن كما تنأى الريح بالغمامة السابحة على وجه السماء لكنها لازالت تحتفظ بملامح ذلك العهد الجميل عهد الصبا ومعسول الرؤى. لا زالت طفلة صغيرة وحيقة عذبة تسكن أعماقها وتعمر أركان ذاقتها مثلما تعمّر اللؤلؤة الثمينة حروف الصدفة الجميلة... تشرى هذه الطفلة الرقيقة من أعماقها وتسبقها إلى احتضان تلك البراعم الصغيرة فتعانق برائعهم وترافقهم وتلاطفهم وتصادقهم وتبحر في أعينهم وتلامس أرواحهم كما تلامس أذيال النسائم العليلية أحفان الورود الحاملة ثم تخوض غمار الحياة بمحبتهم في غبطة ومسرة.

انتهت حصة التعارف وشرعوا في الدرس الأول على بركة الله. سألت الله أن يوفقها في مسعاها ويكمل أعمالها بالتألق والتجاح.

